الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique & Populaire

Ministère de L'enseignement Supérieur et
de la Recherche Scientifique
Université Dr Taher Moulay -Saida
Faculté de science humanes et sociale

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الدكتور الطاهر مولاي سعيدة
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية

مستخرج اجتماع المجلس العلمي للكلية

بناءا على محضر اجتماع المجلس العلمي رقم 05 المنعقد بتاريخ الواحد و الثلاثون ع من شهر أكتوبر سنة ألفين اثنين و عشرون بمقر كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية ,و الخاصة بالنقطة المتعلقة بالسند البيداغوجي

المقدم من طرف الأستاذ "دلبازمحمد "

المعنون ب: "الحياة الثقافية في الجزائر"

موجه لطلبة السنة الثانية ماستر السداسي الثالث

فقد تمت الموافقة على السند .

رئيس المجلس العلمي للكلية

أ.د حفيان محمد

رئيس المجلس العلمي للكلية
أ.د حفيان محمد

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة سعيدة .د. الطاهر مولاي
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية
قسم: العلوم الإنسانية
شعبة التاريخ

الحياة الثقافية في الجزائر

مطبوعة بيداغوجية – ماستر 2 – تاريخ الجزائر الحديث

السداسي الثالث

إعداد :
د. دلباز محمد

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/ 2021- 2022م

الجمهوريــة الجزائريــة الديمقراطيـة الشعبيــة
وزارة التعليــم العـالي والـبحث العلمـي
جامعة سعيدة .د. الطاهر مولاي
كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية
قسم: العلوم الإنسانية
شعبة التاريخ

الحياة الثقافية في الجزائر

مطبوعة بيداغوجية – ماستر 2 - تاريخ الجزائر الحديث

إعداد :
د. دلباز محمد

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/ 2021- 2022م

الدرس الاول

الأوضاع الثقافية في بداية العهد العثماني

تمثلت مظاهر الثقافة في الجزائر خلال العهد العثماني في التعليم ومؤسساته ورجالاته فإذا نظرنا إلى الثقافة من هذه الزاوية فإننا نلاحظ أن كل هذه العناصر كانت

متوفرة في الجزائر إلا أن دورها ومستواها كان مختلفا من طرف إلى آخر فكانت تتحكم فيها الأوضاع العامة للبلاد من جهة، وسياسة الحكام من جهة أخرى.

I – دور الحكـام :

اعتقدوا في حفظ القرآن وترتيله[1] كفاية لمن يتولى الوظائف السامية فلم يعتنوا بالمثقفين والمفكرين أية عناية تذكر، ولم يؤسسوا جامعة كالقرويين بفاس أو الأزهر بالقاهرة أو الزيتونة بتونس تبحث في العلم وتخرج العلماء .ولم يعقدوا المجالس العلمية للمناظرات كما كان يفعل قبلهم أمراء بني زيان وبني حفص وغيرهم. وهي المجالس التي تشحذ المواهب ويتنافس فيها العلماء وتبرز القضايا الفكرية والخلافات المذهبية[2].

فالعلم كان في وقتهم من شؤون المجتمع وليس من شؤون الحكومة، فلم تكن هناك وزارة ولا إدارة للتعليم بالجزائر بل تركته بيد الأهالي فالأمة بأسرها مسؤولة عن تعليم أطفالها مما جعل مستوياته تختلف بين حواضر الجزائر في حد ذاتها، أما الريف الجزائري فكان يرصف في أغلال الجهل وكان حظه من العلم قليلا جدا وحتى الطلبة الذين يسافرون لأهم الحواضر طلبا للعلم سرعان ما يستقرون بها ولا يعودون إلى قراهم بعد اكتمال تعلمهم، وقد عبر عن ذلك ليون الإفريقي قائلا: "لا يوجد بين السكان من يملك قليلا أو كثيرا من العلم لدرجة أن أي أجنبي يمر ببلدتهم ويكون على جانب من العلم يتثبتون ببقائه لديهم ويحيطونه بمظاهر الاحترام والإجلال"[3]، وظاهرة التخلف هذه التي طبعت العهد العثماني أقرتها عدة ظروف حسب "شو" من ذلك: الطابع العسكري للحكام العثمانيين الذين لم يهتموا إلا بالتجارة والأمور المالية[4] أما العلم فكان من شؤون العلماء أو العامة.

---

[1] - علي عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830م، الجزائر : دار الفكر الإسلامي، المطبعة العربية ، الطبعة الاولى ،1972 ،ص 271.

[2] - أحمد سليماني، تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، ص 70.

[3] - Jean Lion L'Africain, Description de L'Afrique, traduction par(A)Epaulard, Librairie d'Amérique et d'orient, Paris :1981, page 348, 349.

[4] - Tomas Shaw, voyage dans la regence d'alger ,traduit de l'anglais par g maccartthy,tunis :2ème édition , édition bouslama.

هذا الأمر لا يعنيهم إلا في بعض الاستثناءات حيث نجد اشتراك بعض العثمانيين حكاما وجنودا وكراغلة في إقامة مؤسسات التعليم من إمكانياتهم الخاصة ووقف الأحباس عليها،وتوفير الكتب وتعيين المدرسين إلى غير ذلك وربما حتى هذه الالتفاتة منهم قد تكون ذات أبعاد سياسية قبل أن تكون إنسانية.

- اختلاف اللغة بين الحكام والأهالي فالعثمانيون كانوا غرباء في الجزائر ولم يكونوا يتكلمون لغة السكان ولا نعرف حتى اللحظة فيما أنهم كانوا يتقنون العربية العامية فما بالك بالعربية الأدبية، التي لم يجتهدوا في تعلمها إلا في حالات نادرة جدا[5] فكيف نتوقع منهم تشجيع إنتاج بلغة لا يعرفونها ولا يتذوقون أدبها؟[6].
- نتج عن سياسة العزلة التي اتبعها العثمانيون أن انعدم الابتكار[7] في التأليف وأهملت دراسة العلوم التجريبية وسيطرت العلوم الدينية على الثقافة وقتئذ.
- عدم الاستقرار السياسي للبلاد والمظالم الكثيرة التي كان يعانيها الأهالي على يد العثمانيين الدين لم يوفروا الأمن والحرية والاستقرار للإنتاج الفني والعلمي والأدبي، ولم يتخذوا من تشجيع الأدباء والعلماء والفنانين سياسة لهم أثناء حكمهم باستثناء بعض الحالات الشادة.

2- سيطرة روح التصوف

والملاحظ أنه لم يك العثمانيين وحدهم المسؤولين عن تدني المستوى الثقافي في الجزائر بل شاركتهم في ذلك بعض الفئات الشعبية.

لعل الوضعية الثقافية ومستوى الحياة العقلية التي طبعت البلاد خلال هذه الفترة، لها أثرها العميق في انتشار التصوف وكذلك المسار الذي أخذه. فإذا كان التصوف في الفترة

---

[5] - لابد أن نستثني من ذلك محمد الكبير باي معسكر والحاج أحمد باي قسنطينة وكلاهما كرغلي وكذلك محمد بكداش باشا، وحسين خوجة الشريف باشا، ويوسف باشا الذين كانوا يحسنون العربية، وعن المراسلات العلمية والأدبية التي كانت بينهم وبين علماء الجزائر، أنظر أبو القاسم سعد الله تجارب في الادب و الرحلة ، ص 54، ص 62.

[6] - ابوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (16–20) الجزائر: الشركة الوطنية لنشر و التوزيع ، الجزء 1،1981 ، ص 191.

[7] - حلمي محروس اسماعيل، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، الإسكندرية:، مؤسسة شباب الجامعة، ، 1977 ، ص 37.

المبكرة من ظهوره قد اقتصر على النخبة التي تتمتع بثقافة واسعة وهي الثقافة الدينية في الغالب وارتكز على ما يعرف بالتصوف النظري الذي يتطلب قدرا عاليا من الثقافة وجمعوا إليها السلوك المستقيم فنالوا بذلك احترام مختلف شرائح المجتمع خاصة الحكام.

اعتنى العثمانيون وفي مقدمتهم خير الدين بربروس بالطريقة الشاذلية بالجزائر التي مثلها أحمد بن يوسف الملياني وأتباعه كما كان بعض البشوات يمنحون في مناسبات معينة جزءا من جزية أهل الذمة إلى بعض المرابطين والدراويش[8]، غير أن اكتساح التصوف مختلف الشرائح الشعبية يفضي إلى ما يعرف بالتصوف العملي مما لا يتطلب ثقافة واسعة حيث ظهر صنف من المرابطين لا يمثل المتصوفين الحقيقيين فأصبحت اهتمامات المريدين منحصرة في أعمال الحضرة وما يصاحبها من حركات، "فقد استمال الصوفية العامة بظواهرهم، فمالت إليهم لتقريبهم لها طريق السعادة بالرياضة التي هي على العامة أيسر من العلم وباعتقاد أن شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين[9]".

نصبح بذلك أمام إشكالية يصعب الفصل فيها: هل التصوف ورجاله مسؤولين عن تدني المستوى الثقافي ؟ أم أن تراجعه هو الذي جعل التصوف يأخذ هذا الاتجاه؟.

يبدوا أن الطرح الثاني أكثر قبولا واستساغة ذلك أن هناك علاقة لا يمكن إغفالها وهي أن انتشار التصوف بين عامة الشعب من ذوي المستويات الثقافية المحدودة جدا هذا إذا لم نقل أن أكثرهم كان لا يتوفر على أدنى حظ من الثقافة.

روى الفكون أن المرابط قاسم بن أم هاني كان له رعايا وأتباع كثيرين في قسنطينة ونواحيها ،وكان له " فقراء يرقصون ويشطحون و لعابهم يسيل وربما يتضاربون[10]." من جهة أخرى كان الشيخ أحمد بوعكاز قد انتصب لاتخاذ الطريقة والمشيخ وإقامة الحضرة

.

[9] - مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، لبنان : دار الغرب الاسلامي ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزء 2 ، ص 343 ، ص 344.

[10] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ص 118.

فقصده الناس زرافات ووحدانا، وقد وجد فيهم التربة الخصبة لبث جهله ولاسيما حينما ادعى أن تسهيل الأمور بيده وأنه شاوش الصالحين.

حيث سقط في شراك منتحلي التصوف قطاع واسع من الفئات الشعبية التي استسلمت لبدعهم ولما كانت تروجه من كرامات، ولما كانت تنشره من أعمال الشعوذة في بعض الحلقات التي كانوا يعقدونها وهذا ما جعل الحياة الدينية تعرف تراجعا كبيرا لصالح بعض الطقوس المشبوهة والتي سوف تؤثر بدورها على المستوى العلمي لأفراد المجتمع، خاصة بعد أن وجد أولئك المتصوفة ضالتهم في سذاجة أولئك العوام وضحالة مستواهم الثقافي، وقد عبر عن ذلك الفكون قائلا: " فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلمت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا[11]."

هذا دليل قاطع على المرض الذي أصاب المجتمع الجزائري آنذاك دينيا وسياسيا ثقافيا وأخلاقيا فهذا الصنف من أدعياء التصوف كان يستعمل جميع الوسائل لاستغلال العامة ونشر الجهل والخرافة بينها.

كثر في هذا الجو المشبع بالروحانية[12] المدعون للتصوف والمتكسبون بالدين والولاية والإنحراف عن المسار الحقيقي للدين الإسلامي وبالتالي تصدع البنى التحتية للثقافة خاصة عندما سيطرت فكرة الحضرة والشعوذة على عقول الناس الأمر الذي ولد رد فعل من قبل بعض العلماء الفقهاء من إنقاذ صريح للتصوف وبعض رجاله مثل الفكون في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية وبعض التآليف الأخرى المعادية لهذا التيار البدعي غير أن ظروف المجتمع خلال تلك الفترة قد خدمت هذه الفئة بطريقة أو بأخرى.

أدى الفساد السياسي للحكم العثماني بالجزائر إلى تواطؤ الحكام ماديا ومعنويا مع أشباه المتصوفة، فقد عرف عن العثمانيين أنهم كانوا يكثرون الهدايا والعطايا للمرابطين إرضاء لهم واستمرار هذه الفئة في إشغال العامة بواسطة الحضرة ورقصات الغنا التي كانوا

---

[11] - عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص 46.

[12] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص 486.

يقيمونها عما يجري في البلاد، فالعامة خاصة الفقراء منهم كانوا يجدون في هذه التجمعات منتفسا لهم من ضغط الحياة الاجتماعية فتضمن السلطة إلهاءهم عن المطالبة بحقوقهم ويضمن المتصوفة طريقة لكسب قوتهم بلا عناء.

كما شاركت الطرقية في الجمود الثقافي والركود العلمي خلال العهد العثماني ولعل الأمر لم يقف عند هذا الحد فسرعان ما تساعد ظاهرة أخرى تفشت في المجتمع الجزائري عصرئذ على الزيادة من هذا التدني ألا وهي ظاهرة الهجرة التي انتهجها معظم العلماء الجزائريين متخذين وجهتهم سواء نحو المشرق أو المغرب العربيين، فما هي

الدرس الثاني

المؤسسـات في الثقافيـة الجزائر

I- الأوقــاف

يعتبر الوقف أو الحبس من أهم مظاهر الحضارة العربية الإسلامية[13] والقيم الأصيلة، إذ يندرج ضمن الصدقات الجارية بإجماع الفقهاء والعلماء المسلمين.

فالوقف أو الوقوف لغة هو خلاف الجلوس، وقف بالمكان (بفتح القاف) وقف (بسكون القاف) ووقوف، فهو واقف والجمع وقف(بضم الواو، و سكون القاف)، ويقال وقفت الدابة، تقف وقوفا، ووقفتها أنا وقفا، ووقف الدابة جعلها تقف[14].

الوقف إصطلاحا هو قطع التصرف في رقبة العين التي يدوم الإنتفاع بها وصرف المنفعة لجهة الغير[15]، والوقف في الشرع حبس الأصل، وتسبيل المنفعة أي حبس المال وصرف منافعه في سبيل الله، ولهذا التعريف أصل في الحديث الشريف، فعن سفيان بن عبد الله بن عمر بن حفص العمري عن نافع عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب ملك مائة

---

[13] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 2، ، ص223.

[14] - ابن منظور لسان العرب، نسقه و علق عليه و وضع فهارسه علي المشيري، لبنان: دار إحياء التراث العربي، المجلد 15 1988،ص373.

[15] - محمد أبو زهرة ، محاضرات في الوقف، القاهرة : دار الفكر العربي، 1972، ص07

سهم من خيبر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال "يا رسول الله إني أصبت مالا لم أصب مثله قط وقد أردت أن أتقرب به إلى الله عز وجل فقال: حبس الأصل وسبل الثمرة[4]".

الوقف نوع من أنواع الصدقات و اعمال البر و الخير التي حث عليها الشرع، ومع أنه لم يرد نص صريح في كتاب الله تعالى عن الوقف إلا أن هناك آيات تحث على فعل الخير و التعاون على البر و التقوى و منها قوله تعالى "..... وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى[16] ....." ،وقال أيضا " .... لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم[17] ... " .

فالوقف عقد لعمل خيري ذي صبغة "دينية" يقوم على توفر الواقف الذي له أهلية التبرع بما يملك من ملكية أو منفعة، وعلى وجود الموقوف وهو المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس، فضلا على توفر الموقوف عليه وهو المستحق لتلك الذات أو المنفعة.[18] ولو كان مصلحة عامة كالمسجد والمدرسة والزاوية[19] وغيرها، هذا مع اشتراط صيغة الوقف ولو كانت بكتابة على مسجد أو مؤسسة خيرية تعود أساسا على المصلحة العامة التي حبس من أجلها، وذلك بحضور الواقف والشهود، مع تحديد قيمة الوقف وتعيين أغراضه، وكيفية الاستفادة منه وانتقاله وعوامل نموه، وتخصيص المشرفين عليه وشروطهم، مع ذكر تاريخ الوقف وتوقيع الحاضرين والقاضي، فللوقف إذن وثيقة شرعية يستند عليها ويلتزم باحترامها الواقف وأهله والمستفيدون منه وكذلك السلطة.[20]

يساهم الوقف بقسط كبير في خدمة الحياة الإجتماعية والثقافية وقد تمثلت أدواره:

- التكفل بسد حاجات المشتغلين بالتعليم.

---

[16] - سورة البقرة، الآية 197.

[17] - سورة آل عمران، الآية 92.

[18] - ناصر الدين سعيد وني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 149

[19] - فراج أحمد حسن، محمد كمال الدين إمام، نظام الإرث والوصايا والأوقاف في الفقه الإسلامي، بيروت: منشورات الحلمي الحقوقية، 2002، ص 188.

[20] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص224

- العناية بالمساجد والمدارس والأضرحة والزوايا وذلك بتغطية نفقات القائمين عليها.
- تعهد أماكن العبادة والتعليم بالصيانة والإصلاح[21].
- يعمق التضامن الإجتماعي[22] وذلك بالعناية بفقراء فئة معينة كفقراء الأندلس وفقراء الأشراف، أو بطلبة خصوصين كالشبان الأتراك، أو بفقراء مدينة بعينها، كفقراء مكة والمدينة أو العناية بمذهب كالوقف على نشر وتدريس المذهب الحنفي.

الجدير بالذكر أيضا أنه كان من بين الواقفين مدنيين وعسكريين وحتى النساء كانت لهن مساهمة في الوقف خلال العهد العثماني، فالحكام العثمانيين كانوا يشعرون ببعض الواجب الديني والاجتماعي فكانوا يسعون إلى تسيير منشآت دينية (المساجد والجوامع) ويقفون الأوقاف على ما بنوه.

كما كانت للنساء مشاركة في الأوقاف، ففي إحدى الوثائق العائدة للعهد العثماني، والمتمثلة في بيان العقود والأملاك المحبسة على المسجد الأعظم نجد إشارة إلى عقد تحبيس لصالح مسجد سيدي رمضان" عقد العلوي مع حانوتها قرب سوق الغزال ربعها لفقراء جزاير وربعها لمسجد سيدي رمضان تحبيس خديجة بنت حسن بتاريخ 1103هـ (1691-1692م)[23] .

كما أوقفت السيدة مريم من عائلة ابن نيكرو الأندلسية أوقافا كثيرة على الجامع المعروف باسمها "جامع السيدة مريم" وتتمثل الوقفية في ثلاثة منازل وأربعة عشر دكانا،

---

[21] - حنيفي هلايلي: الحضور الأندلسي في مجتمع مدينة الجزائر العثمانية، على ضوء المساهمات الوقفية، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد31، السنة ديسمبر 2005. منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات تونس، ص61.

[22] -(ch) le clerc: inscription arabes de mascara in R.A.N,01 Année 1859, page 43.

[23] -عبدالقادر نور الدين، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى إنهاء العهد التركي، الجزائر : نشر كلية الآداب ،1965،ص58.

وخصصت السيدة حنيفة بنت مصطفى خوجة وهي زوج الحاج محمد خوجة، أوقافا على الزاوية التي بناها زوجها.[24]

وكانت الأوقاف تتوزع على عدة مؤسسات خيرية و هي ذات صبغة قانونية ووضع إداري خاص منها :

أ- أوقـاف الحرميـن الشريفيـن

هي الاحباس المخصصة لمصلحة مكة والمدينة[1] وقد كانت تشكل أغلب الأوقاف الخيرية أو الأهلية، وذلك للمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي خصت بها سكان الجزائر البقاع المقدسة بالحجاز. ولقد بلغت هذه الأوقاف أواخر العهد العثماني ثلاثة أرباع الأوقاف الموجودة أنذاك، بحيث كان عدد أوقاف الحرمين بمدينة الجزائر وضواحيها عشية الإحتلال الفرنسي يتراوح ما بين 1357و1558 ملكية عقارية، ولمؤسسة مكة والمدينة أهمية سياسية أيضا فقد كانت وجه الجزائر في العالم الإسلامي وكان ركب الحج الجزائري يحمل كل سنة كمية هائلة من النقود والذهب والفضة والألبسة وغيرها إلى فقراء مكة والمدينة وخدام الحرمين الشريفين.

ب- أوقاف الجامع الأعظم وبقية المساجد الحنفية والمالكية

هي من حيث كثرة عددها ووفرة مردودها تحتل الدرجة الثانية بعد أوقاف الحرمين، ولعل هذا يعود أساسا إلى الدور الذي كان يلعبه الجامع الأعظم في الحياة الثقافية والدينية لأن مداخيل أحباسه هي التي ساعدته على أداء وظائفه المتعددة . فقد بلغ عدد المساجد المالكية 92 مسجدا، كل مسجد خصصت له أوقاف تنفق عليه وفي طليعة هذه الأوقاف أوقاف المسجد الأعظم التي بلغت 550 وقفا كانت تشمل على المنازل والحوانيت والبساتين والمزارع والضيعات وغيرها، إلى أن قضت الإدارة الفرنسية كإنتقام من قاضيها المالكي مصطفى بن الكبابطي الذي إتهمته بمحاربة الإحتلال الفرنسي، بضم جميع أحباس الجامع الأعظم إلى الإدارة الفرنسية، وهو ما أطلق عليه إسم الدومين .

---

[24] - Devoulx , opcit , page280.

جـ أوقـاف سبـل الخيـرات

تذكر بعض المصادر أنها تأسست عام 999هـ-1584م، على يد شعبان خوجة وهي مخصصة للإنفاق على المساجد الحنفية الواقعة بمدينة الجزائر والبالغ عددها ثمانية مساجد "الجامع الجديد، جامع السفير وزاويته، جامع دار القاضي، جامع كتشاوة وجامع الحاج شعبان خوجة وجامع الشبارلية ومسجد حسين داي ومسجد علي خوجة الواقعين بحصن القصبة".

هي مؤسسة شبه رسمية كانت تديرها جماعة يعينها الباشا نفسه، وقد كان على رأسها حوالي سنة 1108 هـ الحاج حسن آغا بن محمد التركي والحاج ابراهيم بن الحاج حميدة الأندلسي ومن بين المشرفين عليها سنة 1209هـ الحاج خليل (معزول آغا) ومن أبرز ما قامت به.

د- أوقـاف أهـل الأندلـس:

كانت أوقاف الأندلس لا تقل أهمية عن أوقاف الحرمين الشريفين وإدارة سبل الخيرات نظرا لاستقرار عدد كبير من مهاجري الأندلس بالحواضر الجزائرية، وإمتلاكهم ثروات ضخمة نتيجة أعمال القرصنة والإشتغال بالزراعة والصناعة وقد خص الكثير منهم جامع الأندلس والزاوية الملحقة به الذي أسس في النصف الأول من القرن 16م بكثير من الهبات والأوقاف بلغت 40 ملكية و61 فناء وضعت تحت تصرف وكيل الأندلس[25].

هـ- أوقـاف الأولياء والأشـراف:

حضي أغلب الأولياء (المرابطين) بأوقاف خصص للانفاق على أضرحتهم ففي مدينة الجزائر كانت تتوزع أوقاف الأولياء على 9 أضرحة 8 منها تقع داخل مدينة الجزائر وواحد وهو ضريح عبد الرحمن الثعالبي يقع بنواحي جرجرة، وتأتي في مقدمة الأوقاف أوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي كانت تقدر في السنوات الأولى للإحتلال 69 وقفا.

---

[25] - ناصر الدين سعيد وني ، المرجع نفسه ، ص160.

ما تجدر الإشارة إليه أن جميع الأوقاف التي كانت موجهة لخدمة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني فإن بعد الاحتلال أول عمل قامت به السلطات الفرنسية هو تصفية هذه الأخيرة، ولعل الدافع الرئيسي من وراء ذلك هو سد أبواب العلم والمعرفة في وجه الجزائريين وتجهيلهم حتى تتمكن من السيطرة المطلقة عليهم. وتعتبر أوقاف الجامع الكبير وبعض الزوايا بالعاصمة وأوقاف الجامع الكبير بقسنطينة ومعسكر وتلمسان والمدية من المؤسسات الغنية في المجتمع الجزائري وهي لذلك كانت وسائل للنفوذ والاثراء لمن يتولى وكالتها من العلماء ونحوهم، وقد أشرفت عائلة قدورة على وكالة أوقاف الجامع الكبير بالعاصمة مدة طويلة، واستطاع سعيد قدورة أن يبني زاوية ومدرسة من فائض أوقاف الجامع الكبير ومن الزوايا كثيرة الدخل بالعاصمة زاوية ولي دادة وزاوية احمد بن عبد الله الجزائري، وزاوية عبد الرحمن الثعالبي وقد ساهمت هذه الزوايا بتنشيط الحركة العلمية بالجزائر خلال هذه الفترة والتي سنفرد لها دراسة فيما بعد.

ذكر الدكتور سعد الله أن اليهود كانوا أيضا يستغلون الأوقاف عن طريق الكراء ونحوه حسب وثائق الأرشيف التي ذكرت أن أحد اليهود أخذ مبلغا من أملاك الحرمين، كما ذكر أن معظم الأوقاف كانت تنص على مسائل وأغراض دينية كالطواف بالكعبة باسم الواقف وقراءة الأذكار أو أحزاب من القرآن على الواقف وقلما وجد منها ما ينص على شؤون العلم كالتدريس والكتب[26].

إن المكانة التي إحتلتها مؤسسة الأوقاف في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ولاسيما الثقافية منها في الجزائر خلال العهد العثماني والتي إرتبط مصيرها بالمؤسسات الدينية والثقافية كانت تؤدي وظائف عديدة أهمها خدمة الدين والتعليم كما كانت عنوانا للتضامن الإجتماعي، كما كانت تمثل بالنسبة لأوقاف مكة والمدينة الوجه السياسي للجزائر قد لفتت

---

[26] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص 241.

إنتباه الباحثين وأصبحت محور الاهتمامات الاستعمارية[27] ثم موضوع مطالب الحركة الوطنية[28] للتعريف بهذه المؤسسة في بعض مظاهرها وإبراز مكانتها في السياسة والتعليم.

كما ظهر من خلال بعض النماذج التي سقناها أن العثمانيين لم يهملوا تماما وسائل نشر التعليم الديني ورعاية المجتمع ،غير أن هناك ظروف أخرى تدخلت فجعلت الأوقاف غير فعالة في خدمة التعليم لما إكتنفها من الغموض والتصوف والشعوذة ومظاهر التخلف الإجتماعي الأخرى كما كان هناك مشاركة في بعض الأوقاف بين المذهب المالكي والمذهب الحنفي مثل المساهمات الوقفية على الجامع الأعظم وهذا دليل على عدم وجود أي تعصب ديني أو عرقي.

ساهمت مؤسسات الأحباس في الجزائر مساهمة واسعة وكبيرة في إدارة المدينة فقد أدى تنوعها وتعددها إلى توفير الخدمات والمرافق العلمية العامة وإلى إستقلاليتها المالية بحيث كانت تغطي تكاليف الماء والتعليم والعبادات والعديد من الأنشطة الحضرية[29] وهي بذلك تعتبر عملا متحكما الى حد بعيد في الحياة الثقافية كونها أدت الى إيجاد نوع من الوحدة الثقافية في البلاد، إضافة الى أنها كانت تستعمل في التخفيف على الفقراء بتوزيع الصدقات التي كان يقبضها هؤلاء يومي الاثنين والخميس وهي بذلك تعطينا تمثيلا مصغرا لوزارتي المالية والتعليم بمفهومهما الحالي.

---

[27] -(L) Feraud , anciens établissements religieux à Constantine, in R.A.N°12 Année 1868, page 132

[28] -(A) devoulx, op.cit , page 116.

[29] - مصطفى أحمد بن حموش ، المدينةوالسلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني ، سوريا : دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999،ص132.

الدرس الثالث

المساجد

تعتبر المساجد من المظاهر والمنشآت المعمارية التي لو يمكن أن تخلوا منها أي مدينة من المدن الإسلامية فهي تمثل الصورة[30] الحقيقية للشريعة ويعتبر روح وجوهر العقيدة الإسلامية ومن السمات البارزة الدالة عليها.

ظهر المسجد بظهور الإسلام، وقامت روح الدرس فيه منذ أن نشأ واستمر كذلك على مر السنين والقرون وفي مختلف البلاد الإسلامية دون إنقطاع. ولعل السبب في جعل المسجد مركزا ثقافيا هو أن الدراسات الأولى كانت تهتم بتعليم الإسلام وهذه تتصل بالمسجد إتصالا وثيقا مثل الفقه والتفسير ورواية الحديث.

هذا ما لاحظه حتى الرحالة الغربيين الذين كتبوا عن المساجد حيث ذكر توماس شاو " ان الإمام كان يصعد على المنبر يوم الجمعة، يوم إجتماعهم الديني لشرح بعض الآيات من القرآن الكريم أو لحث المصلين على الرحمة والشفقة والقيام بالأعمال الخيرة".[31]

تختلف الإحصاءات عن عدد المساجد في المدن الجزائرية خلال العهد العثماني بل هناك إحصاءات تختلف فيها المساجد القديمة المؤسسة قبل العهد العثماني والمؤسسة أثناءه، فالتمغروطي مثلا إكتفى في حديثه عن مدينة الجزائر في آخر القرن العاشر (16م) بقوله أن فيها: "الجامع الكبير وهو واسع وإمامه مالكي، وفيه ثلاث خطب أحدها للترك وإمامهم حنفي" ومعنى هذا أن مدينة الجزائر على عهدلم يك فيها سوى ثلاثة جوامع للجمعة منها الجامع الكبير (الأعظم) المالكي ،وجامع السفير الحنفي وجامع ثالث لعله جامع القشاش أو جامع سيدي رمضان الذي كان قديما أيضا.

---

[30] -Danial normane , islame in europe and empire , germany : at university press edinburch , page 23 .

[31] - تركي رابح عمامرة ، رسالة المسجد في المجتمع الجزائري ، حوليات جامعة الجزائر ، العدد 3 ، سنة 1986 ، 1987 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ص 74 .

ذكر هايدو في أواخر القرن العاشر هجري (16م) أنه كان يوجد في مدينة الجزائر على الأقل مائة مسجد كبير منها سبعة رئيسية[32] بينما ذكر Venture de paradis أنه كان يوجد بمدينة الجزائر 12 مسجد أهمها الجامع الكبير الذي يوجد به مفتيان وقاضيان يجتمعان كل خميس للفصل في النزاعات بين الأهالي التي لم تفصل فيها المحاكم، وتقسيم الميراث.

يدعى المجلس الشريف[33] Madglis el cherif وفي بداية القرن 13 عشر (19م) ذكر بنانتي لإيطالي أن هذه المدينة كانت تضم تسعة جوامع و50 مسجدا[34]، وأكد بيسونال أن عدد المساجد في مدينة الجزائر بلغ عشرة مساجد كبيرة و خمسين مسجدا صغيرا معدة للتعليم.

كما ذكر ويليام ليثجو في القرن 11 عشر (17م) أن الجزائر كانت عامرة[35] بالمساجد وهذا يدل على أن المساجد كانت كثيرة غير أن لا أحد من هؤلاء الرحالة والمؤرخين قد فصل في عددها أو في قدمها او حداثتها .

غير أن Devoulx الذي بحث في موضوع المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر قال أنه كان بها سنة 1246هـ-1830م زهاء 13عشر جامعا (جامع للخطب) ومائة وتسعة مسجد وهي إثنان وتسعون مسجدا مالكيا وأربعة عشر مسجدا حنفيا. وهذا الاختلاف في الإحصاءات شمل أيضا حواضر مدينة الجزائر مثل قسنطينة ففي عهد صالح باي الذي إعتنى بإحصاء المساجد و ترميمها وتشييدها بلغت كما ورد في السجل خمسة وسبعين مسجدا وجامعا بالإضافة إلى سبعة مساجد تقع خارج المدينة. أما الورتيلاني فقد ذكر في رحلته " أنه كان بقسنطينة حوالي خمسة جوامع خطبة وأن بعضها كان متقن البناء".

---

[32] - Jean Andres Peyssonnel , voyage dans la regence de tunis et d'alger ,présentation de lucette valanci , paris édition de decouverte , 1987, page 251 .

[33] - Ventures de Paradis ,Alger au x v111em siècle, tunis : .2em édition ,édition bouslma –page 157-158.

[34] -, Panenti Relation d'un sejour a Alger, contenant des observation sur létat actuelle de cette regence , paris :1830,page112.

[35] - وليام ليثجو ، الجزائر في القرن السابع عشر لرحالة أسكتلندي ، تقديم ميشال أبار ، ترجمة حنفي عيسى ، مجلة الثقافة ، العدد 3سنة 1391 هـ جويلية 1971 ، ص 45.

تذكر المصادر أنه كان بتلمسان في آخر العهد العثماني خمسون مسجدا أغلبها صغيرة، وهناك من يعطينا رقما إجماليا للمدينة وضواحيها حيث بلغت ستون مسجدا[36] وأهمها المسجد الكبير والذي يوجد بوسط المدينة إضافة إلى هذا المسجد فقد كان هناك مساجد الأحياء وهنا نشير إلى مسجد سيدي بومدين ومسجد حي الحضر ومسجد المشور .

أما مساجد مدينة معسكر فأهمها المساجد الثلاثة الرئيسية مسجد السوق والمسجد الكبير أو جامع العين البيضاء وقد إستفاذت هذه المساجد من إصلاحات الباي محمد الكبير العمرانية والثقافية والمعروف أن هذا الباي قد شيد المسجد الكبير المعروف باسمه ويعتبر هذا المسجد أروع وأهم مساجد الإيالة[37] أما أهم مساجد الأحياء فنذكر منها حي عرقوب إسماعيل.

تمثلت مساجد مازونة بعد المسجد المركزي في مساجد الأحياء الأربعة، حيث أن كل حي كان يضم مسجدا وبلغ عدد مساجد ندرومة 12 مسجدا، وأهمها المسجد الكبير الذي يوجد بحي التربيعة والذي يعود تاريخه إلى عهد المرابطين. أما المدية فقد كان فيها أواخر العهد العثماني حوالي أحد عشر مسجدا منها الجامع الكبير الذي يعود تاريخه إلى 1127هـ وجامع سيدي المزاري الذي بناه مصطفى بومزراق باي التيطري، والجامع الأحمر الذي شيده الباي حسن حوالي1213 هـ ورغم وفرة المساجد فهذا لا يدل على العناية بها فقد سجل بعض المؤلفين والملاحظين ملاحظة حول إهمال المساجد والوقف عليها بما يحفظها ويصونها، فقد كان بعضها خربا وبعضها سيء البناء أصلا وبعضها محروما من الأوقاف لتجديده.

كماإشتكى أحمد ساسي البوني إلى الباشا محمد بكداش خراب المساجد في عنابة وخلوها من المصلين والعباد في قوله:

---

[36]- Joseph Comal , monographie de l'anfondissement de Tlemcen in B.S.G.A.O T.V III ;1887.page 107.

[37] - (a) Georguos ,notice sur le bey d'oran mohamed el kebir ,in RA N°1 Annee1856-1857 , Alger : office de publication universitaire ,page 408.

خربـــت المساجـــد وقـــل فيـــها الساجـــد[38]

جاء بعده الورتيلاني وعز عليه عدم العناية بالمساجد وأوقافها خاصة بقسنطينة وبسكرة في قوله:" فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث... ولا واهيا قد أصلح، بل لو سقط شيئ من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه اذا كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر أو جص، وإن كان مجصصا أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه معرقة فقير هندي فيه من كل لون رقعة ... وما أرى ما حال بمغربنا من الوهن إلا بسبب أمثال هذا"[39].

فالورتيلاني قد عاب على الجزائريين عموما والحكام العثمانيين خصوصا عدم اهتمامهم بالمساجد لأنها ملتقى العلماء محاولا أن يشد انتباههم إلى أهميتها في حياة الفرد والمجتمع، آملا أن تصير هذه الأخيرة إلى مستوى مساجد تونس ومصر والحجاز.

على ما يبدو فإن الورتيلاني قد نجح في مقصده في استنهاض عزائم الوجهاء لتعويض هذا النقص وفي أواخر القرن الثاني عشر (18) عكف البايات[40] على تشييد المساجد وترميمها ووقف الأوقاف عليها نهض صالح باي بقسنطينة يتدبر الأمر ويحصي المساجد وأوقافها ويحاسب الوكلاء القائمين[41] عليها وجد بعضها وأنشأ لذلك مجلسا علميا خاصا للنظر في شؤونها،وبنى محمد الكبير الجامع الأعظم[42] بحاضرة معسكر في فاتح ذو القعدة سنة 1195هـ الموافق لنوفمبر 1781 م من ماله الخاص وأوقف عليه أوقافا كثيرة .

كان عدد المساجد القائمة ولو كانت في غير المدن الرئيسية كثيرا جدا إلى درجة أنها لا تحصى وهي بين كبيرة وصغيرة ذات أشكال وتصميمات هندسية بديعة[43]، كانت تلفت

---

[38] - ابوالقاسم سعد الله ،المرجع السابق، الجزء 1 ، ص249.

[39] - حسين الورتيلاني ، المصدر السابق، ص266.

[40] - Chems Eddine Chitour,histoire, de l'algerie , religieusede l'algerie , l'indentité et la religion face à la modernité , enagedition distribution- alger :2001, page 119.

[41] - Isabelle G Rangroud , la ville imprenable .une histoire sociale de Constantine au 18eme siècle, paris : édition l'école des hautes étude en science sociale , 2002, page 258.

[42] - بن عتو بلبراوات ، المرجع السابق ، ص199.

[43] - Rozet et Carette , Algerie ,l'état tripolitain , tunis : édition bouslans, 2eme édition , page 15.

انتباه الرحالة وتثير إعجابهم خاصة المغاربة فقد أعجب العياشي بصومعة جامع تماسين العالية جدا والتي تحتوي على حوالي مئة درجة ، وأشاد الدرعي بجامعة بسكرة الذي كانت له مئذنة في غاية الإتقان والطول في قوله:"والمسجد واسع جدا متقن البنا"، كما أعجب الدرعي بمسجد عين ماضي وجوامع سيدي عقبة وأولاد جلال وتقرت وغيرها في المدن[44] والقرى.

كما أعجب الرحالة الأوربيون بهندسة بناء المساجد في المدن الجزائرية وزخرفتها الجميلة بالفسيفساء والنقوش العربية،وأفرشها بالزرابي ذات الجودة العالية في أغلب الأحيان غير أنه بمجرد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م سارع الضباط إلى طمس هذه المعالم الحضارية وقد حولوا جامع كجاوة إلى كتدرائية وجامع علي بتشيني إلى كنيسة وجامع سوق الغزل بقسنطينة إلى كتدرائية أيضا كما قامو بهدم أغلب مساجد العاصمة مثل جامع السيدة وكذلك مساجد عنابة والمدية وقسنطينة[45] وغيرها من المدن الجزائرية.

كانت مدينة الجزائر قبل العهد العثماني تحتوي على عدة مساجد كالجامع الأعظم أو الجامع [46] الكبير والذي ما زال يحمل نفس الإسم إلى اليوم وقد كان ذا أهمية خلال الحكم العثماني بالجزائر، إذ كان المكان الذي تعقد فيه جلسات القضاء الأعلى أو ما كان يعرف بالمجلس الشرعي حيث كانت ترفع إليه القضايا المستعصية وكان يتألف من القاضيين والمفتيين المالكي والحنفي، وكانت ترفع لديه النوازل والمنزاعات الصعبة أي كان بمثابة محكمة استئناف تراجع فيه الأحكام وأحيانا كان يحضر المجلس حاكم الجزائر أو ممثل عن المؤسسة العسكرية والذي كان يعرف بيباشي وقد ورد ذكره في إحدى الوثائق المتضمنة قضية بث فيها المجلس العلمي حيث تم الإشارة إلى حضوره عند التطرق إلى الحكم ونص ذلك: "... بمحضر المعظم محمد بيباشي الموجه من قبل العسكر المنصور لحضور المجلس المرقوم بتاريخ أواخر شهر رمضان قدره من عام خمسة ومايه وألف...[47]"، ومسجد سيدي

---

[44] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص251

[45] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص251

[46] - Tal Shuval ,la ville d'alger vers la fin du xv111 eme siècle ,paris ,édition GNRS ,1998.page 191,

[47] - الأرشيف الوطني ، سلسلة المحاكم الشرعية العلبة 76-1،الوثيقة رقم3 ، تاريخها 1099- (1688م) .

علي رمضان الذي كان يقع في أعلى المدينة بالقرب من القصبة القديمة[48] وقد سمي على ولي صالح مدفون فيه وهو بسيط جدا ليس فيه أدنى زخرفة، أما جامع القشاش[49] فقد كان يعتبر من أجمل جوامع مدينة الجزائر حسب ما ذكره هايد وألحق بزاوية عرفت باسمه[50] وهذا سنة 1069هـ- 1659م والتي اشتهرت بالتدريس خلال هذه الفترة كما أشاد بها أبو راس خلال رحلته.[51]

كانت المساجد بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني بعضها ما هو تابع للمذهب المالكي ومنها ما هو للمذهب الحنفي ويعتبر جامع "السفير" أول مسجد حنفي وقد نقشت على بابه الرئيسي "، ... وبعد فهذا مسجد عظيم، ومقام كريم، أسس على التقوى بنيانه وارتسمت على السعادة والتوفيق أرجاؤه وأركانه، أمر ببنائه الفقير إلى مولاه مملوك مولانا السلطان الكبير المعظم الشهير المجاهد في سبيل رب العالمين، مولانا خير الدين أيده الله ونصره وهو عبد الله سبحانه سفر غفر الله ذنبه" وقد كان يعتبر تحفة في الفن المعماري فقد كان مدهشا بقبته البيضاوية وأعمدته القديمة ومحرابه المغطى بزليج فارسي جميل وما يميزه أيضا أنه بني خلال مدة تسعة أشهر فقط حيث شرع في بنائه في شهر رجب من عام 940هـ الموافق لشهر جانفي 1533م وانتهى بناؤه في شهر رجب 2 ربيع الأول من عام 941هـ الموافق لشهر 11 سبتمبر 1534م.

من أشهر المساجد في غير العاصمة نجد جامع الباي محمد الكبير بمعسكر الذي صممه تصميما بديعا وأوقف عليه أوقاف كثيرة حتى يكون في وضع ينافس به القرويين بفاس.

- يتضح مما سبق أن عدد المساجد في الجزائر خلال العهد العثماني كان معتبرا وقد إشترك في تأسيسه الأهالي والحكام العثمانيين بدوافع دينية محضة . كما

---

[48] - De voulx , op -cit , page 173.

[49] -ابوالقاسم سعد الله المرجع السابق، الجزء 1 ، ص251

[50] - حسب هايدو فإن الجامع تأسس سنة 1579 ، من طرف أحد المورسكين الذي يسمى القشاش ، أنظر , Haedo topographie, page 208

[51] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع نفسه، الجزء 1 ، ص252.

أوقفوا عليها الأوقاف التي لم تسلم من اختلاسات السلطة أو من الوكلاء، غير أنها تعطينا الإحساس المشترك بين الجزائريين والعثمانيين بالإنتماء إلى الدين الإسلامي.

الدرس الرابع

-الزوايـــا

من أبرز ميزات العهد العثماني في الجزائر إنتشار الطرق الصوفية وكثرة الزوايا المخصصة لها، ففي المدن والأرياف عاش معظم المتصوفة يبثون عقائدهم، ويلقنون أتباعهم الأذكار والأوراد، مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا مؤثرين العزلة والعبادة، وكثيرا ما كانوا يعلمون المريدين والعامة مبادئ الدين ، فإذا اشتهر احدهم بين الناس أسس له مركزا يستقبل فيه الزوار و إتباع و يعلم فيه الطلبة وهذا ما يعرف عندنا بالزاوية وسنحاول في هذا الصدد أن نقف على مفهومها:

الزاوية: هي في الأصل ركن البناء وكانت تطلق في بادئ الأمر على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير "المصلى" ولا يزال للكلمة هذا المعنى عند المسلمين في الشرق ذلك أنهم يفرقون بينها وبين المعبد الذي يفوقها شأنا[52]. أما في المغرب العربي فهي المواضع المعدة لأرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين[53].

الزاوية في إيالة الجزائر على العموم هي بناية تحتوي على حجرات ضيقة لمبيت الطلبة والمشردين والعلماء الأجانب، وتحتوي أيضا على مراحيض وأماكن للوضوء.

وصفها Devoulx بأنها عبارة عن محلات فقيرة وقصيرة أبعادها غير منتظمة تبيض بالجير، وعادة ما تحمل اسم مؤسسها أو اسم الحومة التي تقع فيها، أو اسم الولي الصالح الدفين بها أو اسم الجماعة التي تنتمي إليها مثل زاوية الأندلس وزاوية الأشراف[54].

كلمة زاوية في العهد العثماني لم تستعمل بالمفهوم الديني المعروفة به اليوم عند الطرق الصوفية، بل هي عبارة عن مؤسسة كاملة المسكن والملجأ والتعليم والعبادة، كما كانت وقت الحرب تعقد فيها الإجتماعات إذن فهي مؤسسة دينية وثقافية وإجتماعية وعسكرية،[55] وقد كان بعضها يعتبر مدارس عليا لمواصلة التعليم الذي بدأه الصغار في الكتاتيب أو المدارس القرآنية[56]، كان للميزة التي حملتها زوايا ومساجد مدينة الجزائر المتمثلة في أن لكل زاوية مسجد خاص بها بالإضافة إلى أن بعض المساجد كانت لها زوايا تابعة لها ،أن جعلت صعوبة التفريق بين بعض المؤسسات فما هي المؤسسات التي تؤدي وظيفة الزاوية؟ وما هي المؤسسات التي تؤدي وظيفة المسجد؟ .

---

[52] - موسوعة دائرة المعارف الإسلامية ،دبي :مراكز الشارقة للإبداع الفكري ، الجزء10 ، 1998 ، ص332.

[53] - محمد ابن مرزوق ،المصدر السابق ، ص 413

[54] - Devoulx ,op cit , page380.

[55] - احمد شلبي ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، الجزء 4، الطبعة الثالثة ،1969،ص 427،

للمزيد من التفاصيل أنظر:

-عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مصر : نشر مكتبة مدبولي ، 2000،ص128.

- غالب عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، عربي ، فرنسي، إنجليزي، منشورات جروس يرس، 1998، ص211.

[56] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء5 ، ص110.

من هنا كان لابد من التمييز بوضوح بين الزاوية والمسجد ففيما يخص الزوايا لا يكون تأسيسها كاملا بدون بناء مختلف المرافق التابعة لها خاصة المسجد، حيث تفيدنا بعض الوثائق بأن بناء زوايا لا يكون إلا ببناء المرافق التابعة لها خاصة المساجد ففي عقد تأسيس زاوية كجاوة مثلا نجد أن السيد محمد خوجة حرص على بناء مسجد تقام فيه الصلاة ، ومما جاء في عقد التأسيس:"أنه حبس ووقف وأبدى لله تعالى بنية سنية على أسس التقوى، مبنية جميع ساحة الفندق العلوي المذكورين على أن يبنى هناك مدرسة مشتملة على خمس بيوت يسكنها الطلبة للقراءة واشتغال العلم، وعلى مسجد تقام فيه الصلوات الخمس للطلبة المذكورين وغيرهم من المسلمين" [57] .

إحتلت الزوايا في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني مكانة *هامة* إذ كان لها دور فعال في الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية، الأمر الذي أدى إلى انتشارها انتشارا واسعا [58] فهذه مدينة الجزائر عاصمة الدولة كانت تعج بالزوايا والأضرحة فبالإضافة إلى زاوية وضريح عبد الرحمن الثعالبي وزاوية والي دادة وزاوية عبد القادر الجيلالي هناك قائمة طويلة نذكر منها زاوية محمد الشريف وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري، وسيدي الجودي وسيدي جمعة، وسيدي السعدي وسيدي الفاسي ... إلخ، وفي النواحي المجاورة لمدينة الجزائر كانت زاوية القليعة وزاوية المربوسي بالأربعاء وزاوية النملي وخير الدين بن موسى، وزاوية عيد بين بوفاريك والدويرة وزاوية البركاني قرب شرشال ...إلخ[59].

لعبت الزاوية في الريف دورا أكثر إيجابية من الزاوية في المدينة ففي بداية العهد المدروس كانت الزوايا عبارة عن رباطات يقود فيها المرابطون أتباعهم في الحرب وينتصرون المجاهدين و يطعمونهم في زواياهم ويتحالفون مع الأمراء من أجل الدين وحماية البلاد، وعلى هذا النحو تحالف بعضهم مع العثمانيين وقدموا لهم المساعدات

---

[57] - الأرشيف الوطني، سلسلة المحاكم الشرعية، علبة رقم 129، الوثيقة رقم11.

[58] - حميدة عميراوي ، علاقات بين الشرق الجزائري وتونس، أواخر العهد العثماني وبداية الإحتلال الفرنسي ، فسنطينة : دار البعث الطباعة والنشر ، ص30.

[59] -ابوالقاسم سعد الله ،المرجع السابق، الجزء 1 ،ص263.

الأساسية ولكن الدوافع الجهادية بدأت تضعف بالتدريج بعد القضاء على الخطر الخارجي، فعاد المرابطون إلى قواعدهم وكانو على صلة بالشعب أكثر من صلتهم بالسلطة العثمانية التي قدمت لهم امتيازات كثيرة كالعطايا والإعفاء من الضرائب حتى لاتضعف الرابطة بينهما، غير أن بعض الزوايا أخذت تألب الشعب على الثورة ضد السلطة ولا سيما في أواخر العهد العثماني، فقد ثار يحي الاوراسي و الزبوشي، و بن الاحرش الدرقاوي وتمردت التيجانية في عين ماضي ونواحيها[60].

كما اهتمت بتحفيظ القرآن ونشره بصورة مكثفة في الأجيال الإسلامية المتعاقبة وعمقته بين مختلف الطبقات الإجتماعية، كما احتضنت اللغة والثقافة العربية الإسلامية ونشرتهما بشكل واسع ومكثف وفتحت أبوابها للتعليم وجعلته في متناول الجميع[61]، و أنفقت على الطلبة بسخاء وكان ذلك شكلا من أشكال مقاومة الجهل والأمية ونشر العلم والمعرفة، وقد أورد كثير من العلماء في مؤلفاتهم ارتحالهم من مدنهم إلى الزوايا الشهيرة بالريف طلبا للعلم كما هو الأمر بالنسبة للشيخ سعيد قدورة وهو من أبناء مدينة الجزائر وتتلمذ في زاوية محمد بن علي ابهلول المجاجي في"مجاجة" وقد صرح بذلك قائلا"سافرت لطلب العلم فقصدت زاوية الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن علي واخيه ابهلول المجاجي نفعنا الله به آمين ... وكان الشيخ محمد بن علي شديد الإهتمام والإعتناء بالتدريس والعلوم وفنونها كالتفسير والحديث والأصول والبيان والمنطق واللغة وعلم النجوم والطب وغيره ،وقد جمع علم الشريعة وعلم الحقيقة ولا نظير له في عصره وكان يشتد له الرحال لقراءة الصحاح عليه من بلاد مصر وتونس وغيرها"[62]

- عملت على نشر الإسلام في المواطن والأصقاع التي لم يصل إليها خاصة الأقاليم الصحراوية النائية كما فعلت الطريقة التيجانية و السنوسية.

---

[60] -ابوالقاسم سعد الله ،المرجع السابق، الجزء 1 ،ص267.

[61] - الفردبل،المرجع السابق ، ص405.

[62] - مسعود العيد، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا ، العدد3 ، السنة2 ، رجب 1400هـ، ماي 1980، ص61.

- كما عملت الزوايا على إزالة الفوارق الإجتماعية [63]بين الفئات المختلفة، فقربت بين الأغنياء والفقراء والعلماء والأميين، وشرفاء الأصل وغيرهم وصهرتهم في بوتقة واحدة وألفت بينهم جميعا في إطار مفهوم الآية القرآنية الكريمة" إن أكرمكم عند الله[64] أتقاكم"والأحاديث النبوية المختلفة، مثل قوله صلى الله عليه وسلم "المسلمون سواسية كأسنان المشط.." (حديث صحيح).
- لعبت دورا كبيرا في إنهاء الخلافات والخصومات بين مختلف الفئات والطبقات الإجتماعية وذلك بفضل مركز[65] شيوخها و مقدميها ووكلائها ولعبت دور الحكم ،وقللت من المشاكل بين الناس وتمتع المجتمع الجزائري بنوع من الاستقرار النفسي والخلقي .
- كانت هذه الزوايا بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون، وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعهم بالعلم والتعليم والنسخ والنقل والتأليف والجمع، غير أن معظم ما بها من تراث تسرب إلى البلدان الأوروبية خلال السيطرة الاستعمارية على الجزائر، وتعرض جزء من هذا التراث إلى هذا التلف والضياع[66].

الجدير بالذكر أنه كما كانت للزوايا نواحي إيجابية فقد توفرت على نواحي سلبية نذكر منها:

- اتبعت الزوايا أساليب عتيقة ومناهج متخلفة وتمسكت بتقاليد بالية لم تكن تتلاءم مع التطورات الحديثة التي صحبت النهضة الأوروبية الحديثة فساد التخلف الفكري والاجتماعي بين أبنائها وعمهم الركود والتقوقع.

---

[63] - يحي بوعزيز ، المرجع السابق،ص 18

[64] - سورة الحجرات ، الآيـة 13

[65] - Kamel Filali , l'algerie mystique des marabouts fondateurs xv-x1x , France :nouvel imprimerie , page 105.

[66] - يحي بوعزيز ، المرجع نفسه ،ص19.

- انتشرت الأباطيل والخرافات والبدع الدينية بين أبنائها بسبب ضيق أفقهم الفكري وعجزهم عن فهم التطورات القائمة والحركات الإصلاحية التي ظهرت في بعض بلدان الشرق الإسلامية حتى ولو لم تكن في المستوى المطلوب.
- احتدام الخلافات والخصومات بين بعض شيوخ هذه الزويا لاغراض شخصية حول النفوذ والمكانة الإجتماعية وحول بعض القضايا الدينية الهامشية[67].

نستنتج من خلال ما سبق أن الزوايا كانت في بداية عهدها موجهة للعلم والدين لكن سرعان ما حاذ شيوخها عن الطريق المرسوم لهم وهذا لسيطرة فكرة الثروة والجاه على عقول الوكلاء مما جعلها تتراجع شيئا فشيئا عن هدفها المنشود وتتجه إلى الشغف بالدنيا.

الدرس الخامس

[67] - يحي بوعزيز ، المرجع السابق،ص 19-20

المـدارس

نشأت المدارس في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ثم إنتشرت في المغرب الإسلامي. وقد أشار إلى تعريفها ابن ميمون قائلا: "المدارس هي أمكنة خصصت لإلقاء الدروس بها[68]، ولا توجد إلا ببعض المدن الرئيسية مثل قسنطينة، والجزائر وبجاية ووهران وتلمسان. وكانت بهذه المدارس غرف يسكنها الطلبة الغرباء ويعرفها أبو راس الناصر: "المدرسة المتعارفة عندنا الآن هي التي تبنى لدراسة العلم أي تعليمه وتعلمه كالمدرسة البوعنانية بفاس، ومدرسة ابني الإمام بتلمسان والمدرسة المستنصرية والبياشية بتونس والقشاشية في الجزائر والمحمدية بأم عسكر[69] ..." ولعل توجه الجزائريين نحو المدارس يفسره رغبتهم في تخفيف العبء عن المسجد أمام تزايد الإقبال على حلقات العلم والمعرفة، ويظاهر أن تقدم المعارف وظهور مواد تستدعي دراستها كثيرا من الحوار والنقاش والجدل ؛كعلم الكلام والمناظرة،التي تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المسجد من هدوء.

من خواص المدرسة أن يتوفر بها الإيواء و قاعة المحاضرات في التعبير الحديث والمساكن التي تبنى في المدرسة ليستقر بها الطلاب والمدرسون الذين ينتسبون إليها، وما يتبعها من مرافق أخرى.

كثرت في الجزائر المدارس الإبتدائية في المدن وحتى في القرى، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني يبهرون من كثرة المدارس بها وإنتشار التعليم ونذرة الأمية بين السكان[70]. وما يؤكد على تعددها الكتابات الأوربية فقد ذكر كاتكارت:" أن عدد المدارس العمومية بالجزائر يبلغ أربعة وهي عبارة عن بنايات مربعة تحتوي على

---

[68] - محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة 2، ص59

[69] - محمد أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة، رقم 1632 ،الورقة46 .

[70] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1 ، ص274

غرف صغيرة. يدرس الطلبة في هذه المدارس القراءة والكتابة والحساب، ويجري التعليم في الهواء الطلق، والمعلمون عادة هم أئمة المساجد[71]"

كما تحدث الرحالة Venture Deparadis في القرن التاني عشر (I8م) عن وجود ثلاث[72] جامعات لتعليم المذهب المالكي في مدينة الجزائر وحدها، والحقيقة أنه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه، فقد خلت الجزائر العثمانية من مؤسسة التعليم العالي أو ما يشبهه كالأزهر والقرويين والزيتونة. غير أن الدروس في جوامعها الكبيرة كانت تضاهي دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها وتردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

نظام المدارس خاصا و محكما:

- على المدرس أن يقرأ ثلاثة أوقات في اليوم، الدرس الأول من الصبح إلى الساعة II والثاني من الزوال إلى العصر والثالث بين العصر والمغرب.
- الطلبة الذين يجاورون بالمدرسة ثمانية يختص كل اثنين منهم ببيت.
- على كل طالب أن يتولوا اربعة أحزاب من القرآن الكريم كل يوم، حزبين بعد صلاة الصبح وحزبين بعد صلاة العصر، وأثر التلاوة تقرأ الفاتحة، ويقع الدعاء لمؤسس المدرسة.
- لا يقبل مجاورا بالمدرسة إلا من كان يحفظ القرآن الكريم، ولا يشترط فيه أن يكون مالكيا[73] أو حنفيا لا من المدينة أو البادية، إنما يشترط أن يكون غير متزوج و أن ينام بإستمرار في بالمدرسة.
- لا يسمح للمجاور بالخروج إلا للضرورة، وله أيام راحة تتراوح ما بين 20و30 يوما في السنةفإذا تغيب بعدها بدون عذر أعطى مكانه لطالب آخر يقع إنتخابه.

---

[71] - جيمس ليندر كاثكارت ، مذكرات أسير الداي كاتيكارت، قنصل أمريكا في المغرب ، ترجمة وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982 ، ص98.

[72] -Venture de paradis Alger au 18 eme siècle , Tunis : édition bouslama, 2 eme, édition ,page 158.

[73] - احمد توفيق المدني ، المرجع السابق، ص135، ص136.

- إذا قضى المجاور عشرة أعوام في المدرسة ولم يظهر نبوغه في العلم فإنه يبعد عنها ويقع إختيار مجاور آخر في مكانه.
- إذا أساء مجاور صحبة أقرانه أو قام بأعمال أو أقوال غير لائقة، فإنه ينبه ثلاث فإن لم يصلح يطرد .
- لا يسمح لأحد من الطلبة ولا رجال الإدارة أن يناموا في المدرسة ما عدا المجاورين الثمانية. ولقد درس بهذه المدرسة (الشيخ عبد القادر الراشدي المفتي الحنفي، والشيخ شعبان بن جلول قاضي الحنفية، والشيخ العباسي قاضي المالكية.

إن بنود هذا النظام الداخلي توحي بحرص الباي على التعليم ولو انه فيه نوع من كبح للحرية الفردية والضغوطات وهما مؤشران حيويان للإنسانية إذ غابا غابت معهما الرغبة في العلم .

كما شيد مدارس أخرى في عنابة والقل وجيجل وكان يلحق بالمدرسة جامع وكتاب ودار للكتب[74]، وعند دخول الفرنسيين قسنطينة عام 1837 قاموا بإحصاء عدد المدارس الإبتدائية والتي وصل عددها حسب تقاريرهم تسعون مدرسة، وهذا العدد يدل دلالة قاطعة على أن كل طفل ذكر بين السادسة والعاشرة كان له مكان في المدرسة، أما التعليم الثانوي والعالي فقد وجد له الفرنسيون سبعة مدارس بقسنطينة[75]، أما مدرسة مازونة فقد تجاوزت شهرتها الحدود الإقليمية كونها تغذت من المناخ الثقافي الذي ساد المنطقة خاصة تلمسان والقرويين بالمغرب الأقصى، والزيتونة بتونس، فمن حيث الحجم كانت قاعة مدرستها تسع ما بين 60 إلى 80 طالبا، ويعتبر هذا العدد مقياس المراحل الزاهرة، كما عرفت المدرسة قدوم طلبة من مدن عديدة لاسيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان بل حتى من المغرب الأقصى، وخاصة عن منطقة الريف فقد تخرج من مازونة الكثير من الأعلام ابرزهم الشيخ أبو راس الناصر[76].

---

[74] - مسعود العيد ، المرجع السابق،ص91.

[75] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1 ، ص276.

[76] - Moulay Belhamissi , histoire de mazouna , des origines a nos jour, Alger société nationale d'édition et diffusion , page 50

كما اشتهرت مدينة معسكر بالتعليم من خلال مدارسها ومساجدها التي عرفت أيام الباي محمد الكبير إصلاحات عديدة على مستوى تنظيم سلك التدريس فأنعشت الحركة العلمية والثقافية في عهده، فبني مدرسة في مدينة معسكر ومدرسة في وهران وثالثة في مازونة، أشهرها المدرسة المحمدية التي أشار إليها أبو راس " هي التي أسسها الباي محمد الكبير فاتح وهران والتي تحمل اسمه " وامتدحها ابن سحنون الراشدي قائلا " كاد العلم أن ينفجر[77] من جوانبها "، فأصبحت هذه المدرسة من بين المدارس الكبرى التي عرفها البايلك.

أما في العاصمة فالأقوال متضاربة حول عدد المدارس الإبتدائية والثانوية العالية ويبدوا أن هذا التضارب يعود أساسا إلى أن بعضهم كان يدخل الزوايا والمساجد في عداد المدارس، وقد لاحظ أبو راس الذي زار مدينة الجزائر سنة 1214هـ وجود المدرسة القشاشية وإشاد بها على أساس أنها مركزا للتعليم الثانوي والعالي كما تحدث ابن حمادوش عن مدرسة الجامع الكبير التي نزل بها أحمد الورزيزي سنة 1159هـ، وذكر باناتي أوائل القرن 13م ،" أنه كان في مدينة الجزائر ثلاثة مدارس عامة "[78]وعند دخول الفرنسيين سنة 1830م كان عدد المدارس بالجزائر العاصمة حوالي مائة مدرسة بين إبتدائية وغيرها[79].

بالإضافة إلى المدارس والمعاهد العليا كانت هنالك مراكز أخرى للتعليم مثل الدكاكين التجارية التي كانت تستعمل نهارا للبيع والشراء وفي الليل للمسامرات الأدبية ، والأندية المنزلية وهي التي كانت تقام في منازل وجهاء البلاد والأعيان ذوي النفوذ والسلطة المحلية ، وقد استمرت هذه العادة إلى زمان الإحتلال الفرنسي.

الدرس السادس

ـ المكتبـات

كانت الجزائر خلال العهد العثماني في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات فقد تحدث التمقروتي في أواخر القرن 10هـ (16م) عن وفرة الكتب في مدينة الجزائر قائلا: "

---

[77] - احمد بن سحنون الراشدي، المصدر السابق،ص129.

[78] - Pananti , op -cit, page114.

[79] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 1 ،ص276.

وطلبة العلم لا بأس بهم... والكتب بها أوجد من غيرها من بلاد إفريقية وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا[80]..." وقد شهد على وفرة المكتبات الفرنسيين الذين حكموا بأن العثمانيين لم يقدموا أي عمل لتنشيط الحياة الروحية والفكرية في الجزائر، وقد ذكر لالوي: " أن المخطوطات التي جمعها بير بروجر من قسنطينة كانت جميلة في الشكل والتجليد وإنها كانت واردة من مصر وتركيا[81]" وكتب فلويسن عن المكتبات بالجزائر حيث قال " إنها تحتوي على كتب القرآن والتفسير ومجموعة من كتب الأخبار[82] والتواريخ."، وكانت الكتب تنتج في الجزائر محليا عن طريق التأليف والنسخ، حيث أشتهر العديد في ذلك.

كما كانت تجلب من الخارج وذلك بانتقالها عبر الحجيج والعلماء، من مصر والحجاز واسطنبول روى الجبريتي في عجائب الآثار أن والده قد ذكر له أنه ورد عليهم في مصر سنة 1196هـ، بعض الحجاج الجزائريين وسألوه عن كتب يشترونها منها زيج الراصد للسمرقندي الذي كانت له نسخة منه، وحاول الحاج الجزائري إغراء الشيخ الجبريتي بشراء نسخة منه ولكن الجبريتي أبى ذلك، وبعد أن أدى الرجل الجزائري فريضة الحج عاد إلى مصر وحضر للشيخ الجبريتي رزمة كبيرة من الكتب من بينها نسخة من الزيج المذكور، وقد أخبر الحاج الجزائري الجبريتي بأنه اشترى نسخة من الزيج بعشرين ريالا فقط وكتاب المجسطي وكتاب التبصرة وشرح التذكرة ونسخة من البارع وزيج ابن الشاطر،[83]وتابع الجبريتي " وغير ذلك من الكتب التي لا توجد في خزائن الملوك ،" وكلها بذلك الثمن البخس، فقضيت أسفا، فأخذ الجميع مع ما أخذ وذهب إلى بلاده.

أما تركيا وإسطنبول تحديدا، فقد كانت من المدن التي كان علماء الجزائر يقتنون منها كتبهم وكذلك الشأن بالنسبة لمصر بحكم العلاقة الخاصة التي كانت تربط الجزائر بهذه البلدان الإسلامية، فقد روى العياشي في القرن 11هـ (17م) " أنه شاهد بتكورارت بأعماق

---

[80] - التمقروتي، التحفة المسكية في السفارة التركية، نقلا عن مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1997 ، ص 59.

[81] - Francis La Loc, les manuscit arabes de Constantine : in R A, n° 66,1925, page 109.

[82] -ابوالقاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الجزائر : دار الآداب، الطبعة الثانية، 1997، ص12.

[83] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2 ،ص 289.

الصحراء مكتبة غنية كان يملكها الشيخ محمد بن إسماعيل، وكانت تبلغ ألفا وخمسمائة كتاب وهي كتب نفيسة جدا اقتنى ابن إسماعيل أكثرها لما كان بمدينة اسطنبول[84]".

الاستنساخ وكان هذا الأمر من الشيوع بمكان في الجزائر وغيرها من الإيالات بحيث كان الحريصون على جمع الكتب، ينسخون الكتب بأنفسهم أو يستنسخون لغيرهم، إما لندرتها بالنسبة للميسوريين أو لعدم توفر الطاقة للحصول عليها بالنسبة للعلماء[85].

اشتهرت قسنطينة ببعض النساخين والخطاطين من بينهم أبو عبد الله بن العطار وابراهيم الحركاتي الذي كان مدرسا بالمهنة، واشتهر محمد الزجاي بالنساخة حتى قيل " أنه كان يكتب ويحدث الجالس بدون كلل ولا زلة قلم[86] "، وكان النسخ يتم بالخط الأندلسي الذي قال عنه ابن خلدون أنه قد تغلب على الخطوط الأخرى في المغرب العربي وهو المعروف اليوم بالخط المغربي

من أشهر المسؤولين الذين شجعوا حركة النسخ الباي محمد الكبير فقد شجع الطلبة وكتابه الخصوصيين على إختصار الكتب المطولة ونسخ بعض الكتب الأخرى له، وكان يجيز كل واحد منهم بسخاء حسب عمله وجهوده[87]، فقد أمر بجمع فتاوى العلماء في جوائز الملوك في كراسة، وجمع له كلام شارح السلوانية في الباز، وكلام صاحب التذكرة في أقل من كراس.

شاعت هذه الحركة، حتى أنها كانت لها أسواق رائجة وإختصاصيون مشهورون فقد جاء في (منشور الهداية) أن محمد النقاوسي كان سمسار للكتب في قسنطينة ،و في تلمسان اشتهر علي بن تجيرست بالاشغال بالوراقة، وروى إبن حمادوش أنه كان يشتغل بالكتب

---

[84] -عبدالرحمن الجبريتي، عجائب الآثارفي اللطائف والاخبار، القاهرة : المطبعةالاميرية ،الجزء 2، ص .74

[3]- محمد صاحبي ، تاريخ الجزائر الثقافي من خلال المخطوطات، زاوية الهامل نموذجا، مجلة عصور، العدد 1، السنة 1423، جوان 2002، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع،وهران، ص 42.

[1]- ابو القاسم سعد الله، المرجع السابق، الجزء 01 ، ص 201

[87] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2، ص293.

بيعا وتجليدا ونسخا في مدينة الجزائر وأنه كان يملك دكان لهذا الغرض قبالة الجامع الكبير[88].

كان الشراء من أهم الطرق للحصول على الكتب. ولم يكن ذلك مقصورا على الأغنياء والأمراء ونحوهم بل كان يشمل حتى الفقراء العلماء والأمثلة كثيرة على ذلك يكتشفها المطلع على كتاب منشور الهداية. كما جاء في وثائق الجامع الكبير بالعاصمة " أن المفتي سعيد قدورة قد إشترى لمكتبة الجامع كتبا كثيرة من فائض الأوقاف"[89]. غير أن شراء الكتب لم يكن دائما للإستفادة منها علميا، فقد كانت بعض العائلات تفاخر بها مثيلاتها أحيانا وكان أشباه العلماء يقتنونها للمباهاة والتشبه بأهل العلم.

مثل إبن الصخري شيخ العرب وقائد الدواودة والحنانشة.فقد ورد في أخبار هذا القائد أن أحدهم قد نسخ كتابا سنة 1019 هـ وإستفتحه ".... للخزانة العلمية، خزانة أميرنا ومولانا أبو (كذا) عبد الله محمد الصخري[90]".

يعد التأليف من الطرق الهامة لنمو المكتبات في الجزائر، وقد كانت حركة التأليف في العهد العثماني حية ونشيطة فلا نكاد نجد عالما إلا وله تجربة في التأليف تشمل الحواشي والشروح والتقاليد والتعاليق والرسائل والفهارس، ومن أشهر المؤلفين في هذه الفترة عبد الرحمن الأخضري وعبد الكريم الفكون وأحمد البوني وأبوراس الناصر الذي قيل عنه أن تآليفه قد تجاوزت أيام حياته، والجدير بالذكر أنه لولا الرحلة في طلب العلم والحج لما نشطت همم هؤلاء العلماء للتأليف وتغذية المكتبات بإنتاجهم[91].

كما وقف عدد مهم من المخطوطات على الجوامع والمساجد والزوايا سواء من طرف العلماء[92] (وكانت هذه المسألة من العادة التي درج عليها علماء وأمراء الإسلام) أو من

---

[88] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع نفسه ، ص293.

[89] -عبدالقادر نور الدين ، المرجع السابق، ص279.

[90] - ابوالقاسم سعدالله ، المرجع السابق ، الجزء2،ص295.

[91] - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، الجزء 2، ص297.

[92] - محمد صاحبي ، المرجع السابق، ص 42.

طرف العوام من الناس الذين كانوا يقومون بشراء الكتب ووقفها معتبرين ذلك من الصدقات الجارية ،أو تقربا من الأولياء الصالحين الذين كانوا يدفنون في بعض المساجد[93].

كانت الكتب بهذه الخزائن تقل أو تكثر تبعا لأهمية الوقف الذي تتغذى منه و تبعا لأهمية الجامع وأمانة الوكيل وضخامة عدد السكان في المدينة المعنية، ومن أشهر هذا النوع من المكتبات: مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة، ومكتبة المدرسة الكتانية التي أسسها صالح باي بقسنطينة، ومكتبة المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد الكبير في معسكر، ومكتبة الزاوية[94] البكرية بتوات ، ومكتبة زاوية القيطنة في زاوية آقبو والخنقة وغيرها، التي كانت تضم كتبا يطالع منها الطلبة والأساتذة[95]وكان وقف الكتب يتم بنفس الطريقة التي تتم بها الأوقاف الأخرى، فالواقف عادة ينص على أن الكتاب موقف في سبيل الله على طلبة الجامع أو الزاوية أو المدرسة التي يوجد فيها كما ينص على منع إخراج الكتب[96] من المؤسسة الموجودة فيها، وكان الواقف أيضا يضع بعض عبارات الوقف الشرعية، وختمه الذي يحمل تاريخ الوقف وخطه الشخصي[97] هذا فيما يتعلق بالمكتبات العامة.

أما الخاصة منها فهي كثيرة وليس من السهل حصرها، غير أن بعض العائلات خلال العهد العثماني كانت تمتلك مكتبات خاصة كعائلة الفكون بقسنطينة التي كانت لها مكتبة ضخمة وكان لأبي راس أيضا مكتبة حبسها أحد بايات وهران، وسماها (بيت المذاهب الأربعة)، وأشاد الورتيلاني بخزانة كتب والده حيث قال: ".... خزانة كتب عظيمة بحيث لا توجد عند غيره[98]".

كما كان بعض أصحاب المكتبات الخاصة يوصون أن تحمل مكتباتهم بعد وفاتهم إلى خارج الجزائر كالمدينة المنورة " فقد أوصى أحدهم أن تحمل مكتبته إلى الروضة النبوية مع

---

[93] - محمد صاحبي، المرجع نفسه، ص42.

[94] - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، دراسة لأوضاع الإقليم السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية مع تحليل كتاب القول البسيط في أخبار تمنطيط لمحمد بن بابا حيدة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ،1977، ص 86.

[95] - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه، الجزء 1، ص299.

[96] - أنظر ليكليرك، المجلة الإفريقية، عدد 2، السنة 1859، ص43. .

[97] - أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق، الجزء 1، ص300.

[98] - حسين الورتيلاني: المصدر السابق،ص284.

جثمانه...،ولكن المكتبة قد عانت في الطريق قبل أن تصل إلى المدينة، وقد ضاع منها الكثير فبعد أن كانت تحتوي على ألف وخمسمائة مجلد لم يصل إلى المدينة المنورة إلا حوالي مائة وسبعين[99] كتابا فقط"وهذا حسب ما رواه العياشي.

هنا يجب علينا الإشارة أنه لما كانت السيادة في العهد العثماني للعلوم الدينية فإن محتوى المكتبات كان أغلبه لا يخرج عن إطار هذه العلوم، فقد طغت عليها كتب التفاسير والقراءات والأحاديث النبوية وشروحها وكتب الفقه والأصول والتوحيد ونحو ذلك، كما أخذت العلوم اللغوية والعقلية حظها في رفوف هذه المكتبات، الأمر الذي أكدته تقارير الضباط الفرنسيين اثر الاحتلال على المكتبات كل ذلك يؤكد على أن هذه المكتبات كانت غنية بجميع أنواع المعارف المذكورة رغم وفرة الكتب الدينية فيها[100].

ورغم ذلك فإن مصير هذه المكتبات كان غير آمن فقد ضاع أو تلف الكثير منها بسبب الحروب والأوبئة والنهب الإهمال، فالحروب التي وقعت بين الجزائريين الأجانب وبين الجزائريين والعثمانيين، والحروب القبلية ونحوها، قد أدت إلى بعثرة الكتب وسوء التصرف بالمكتبات، فقد ذكر سعد الله أن مكتبة ابن الصخري قد تلفت نتيجة حروب عائلته مع الأتراك، كما تبعثرت مكتبة الزجاي نتيجة حرب[101]درقاوة وفتنة ابن الأحرش.

كما عانت مكتبة الشيخ أبي راس الناصر بعد وفاته كما عانت كتبه في حياته عندما أحرق بعض المتشرفة كتابه عن الأنساب واضطر هو إلى الهرب إلى مازونة، كما تضررت مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة إثر نقلها إلى قلعة مولاي حسن بعيدا عن قصف إحدى الدول الأوروبية للجزائر وكان النقل يتم بواسطة الجمال حيث كانت الكتب تنقل في الغرابر[102] ، ولا شك أنه أثناء عملية نقلها أضر بالكتب كما تعرضت للسرقة خلال النقل، حيث كان الإهمال والنهب من أقسى ما أصاب الكتب أيضا فقد تعرضت مكتبة الجامع الكبير إلى الضياع نتيجة إهمال الوكيل الحاج أحمد قدورة الذي فرق جزءا معتبرا منها على أصدقائه،

---

[99]- انظر سالم العياشي ماء الموائد ، تقديم و تحقيق محمد حجي ، الجزء1، ص 41، ص 52 .

[100] - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص 302.

[101] - أبو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه ، ص 302.

[102] - عبد القادر نورالدين،المرجع السابق ،ص280

فقد تحدث إبن المفتي الذي وصف طابع وحياة العلماء خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (I7وI8م) أنهم وجدوا عند محمد بن ميمون بعد وفاته أكثر من أربعين كتابا من مكتبة الجامع الكبير[103]. لعل أقسى تجربة مرت بها المكتبات الجزائرية هي الإحتلال الفرنسي وما رافقه من حروب وما نتج عنه من تخريب وكذا هجرة كبار العلماء إلى الخارج مع بعضهم كتبهم ووثائقهم،وقد روى الفرنسيون قصصا مثيرة عما وقع لمكتبات قسنطينة ومعسكر وتلمسان وغيرها والذي يطلع على تقارير بيربروجر وديسلان وكتابات شارل فيرو ولالوي يصاب بالإندهاش والصدمة والأسف[104] لأن الإستعمار الفرنسي هو آلة تخريب بشرية لم يسلم منه حتى التراث، ولعل النقص الكبير الذي نعاني منه في مكتباتنا في الوقت الراهن ما هو إلا نتيجة لمرحلة الضياع التي شهدتها المكتبات منذ القرن I7م حتى القرن I2م ، والمهم هو أن المكتبات ليست إلا وسيلة لنشر التعليم وشحذ أذهان العلماء والمدرسين وتحريك عزائمهم على التأليف، كما كانت المكتبات مركز إشعاع ثقافي ولا تزال لأي شعب وفي أي مكان.

---

[103] - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 2،ص304.

[104] - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص204.

الدرس السابع

التعليم (مراحله)

كان العالم العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين لا يزال خاضعا لحكم العثمانيين الذين وقفوا من التقدم الحضاري الذي كان يجري في أوربا موقفا سلبيا، وعندما فكر سلاطينهم في مسايرة أوربا كانت أجهزة الدولة قد أصابها الجمود واستشرى بين صفوف الفرق الإنكشارية العصيان والتمرد.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن تزمت رجال الدين كان يدخل أيضا ضمن عوامل فشل تطور الدولة العثمانية. ولم يكن الباعث على إصلاح أجهزة الدولة والجيش أيام السلطان محمود[105] الثاني هو اقتناع الأتراك وتقبلهم للحضارة الأوربية، بل كان الباعث الحقيقي هو كثرة الهزائم المتتالية للجيش العثماني أمام الأعداء والطامعين، فقد كان السلاطين العثمانيين منذ القرن السادس عشر الميلادي يرفضون فكرة احتكاك شعوبهم المحكومة بالشعوب الأوربية، وكان هذا مرجعه خوفهم من أن تجلب شعوبهم المحكومة الأفكار التحررية

---

[105] - السلطان محمود الثاني (1839/1784م) اعتلى العرش وعمره 24 سنة بعد خلع أخيه مصطفى الرابع (1808م)واصل إصلاحات ابن عمه سليم الثالث، استمرت في عهده الحرب الروسية التركية (1806م-1819م)، أباد عام 1826م فرق الإنكشارية لتمردهم على النظام، نصب محمد علي على إيالة مصر ، والذي غزا فلسطين وسوريا والأناضول بجيش قاده ابنه ابراهيم باشا، للمزيد من الإطلاع أنظر:

عبد اللطيف بوجلخة، الدولة العثمانية، دار المعرفة، ص45.

والمبادئ الديمقراطية التي كانت على النقيض مع المبادئ الاستبدادية التي كان يمارسها الحكام العثمانيين مع رعاياهم لإحكام السيطرة عليها[106].

فانعكس كل هذا على الحالة الثقافية في العالم العربي ومنها الجزائر، فقد توقفت العقول وأخذت تجتر ما تركه الأوائل، وحتى هذا الاجترار اقتصر على العلوم الدينية في أغلب الأحيان، وخرجت اللغة العربية من هذه المحنة تعاني الجمود وقد صور أبو راس الناصر ذلك قائلا: " في زمن عطلت فيه مشاهر العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده وخلت دياره ومواسمه... لاسيما في التاريخ والأدب وأخبار الدول والنسب قد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليه عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول[107]... ".

ففي الوقت الذي لم تحظ العلوم بالعناية[108] الكافية، عكف الكثير من المشايخ المشهود لهم بالكفاءة على الاشتغال بالتدريس في المساجد والزوايا وغيرها من مؤسسات التعليم التي كانت منتشرة بإيالة الجزائر، انتشار طيبا غطى المدينة والقرية والجبل والصحراء، غير أن السؤال الذي لطالما راود العام والخاص هل كانت للدولة العثمانية سياسة تعليمية معينة بالجزائر؟.

تحدثت المصادر الأوربية عن انتشار التعليم بالجزائر وسياسة الدولة اتجاهه، حيث ذكرت بأن العثمانيين لم يعيروا أي اهتمام بميدان التعليم ولم يكن في الإيالة الجزائرية وزير خاص بالتعليم أو وكيل يشرف على قطاعه، كون أن الدولة كانت لها اهتمامات أخرى انحصرت في الدفاع عن الحدود الجزائرية، والمحافظة على استقرارها[109] السياسي، وجباية الضرائب لبيت المال، وكانت هذه المداخيل لا توظف في نشر العلم وتطوير الحياة الثقافية وإنعاشها، وإنما كانت تصرف على الجيش وعلى موظفي الدولة.

---

[106] - فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 74..

[107] - أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة ،رقم 1233، الورقة 2.

[108] - Max Marchand, histoire abrégée De l'Algérie ,Oran ;édition l fouque , page 26.

[109] -Tomas Shaw ,op cit , voyage dans la régence d'Alger ,traduit de l'anglais par page 353.

بالتالي فإن التعليم في الجزائر كان مسألة خاصة اعتمدت على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية التي كانت تعتني وتختص بشؤون التعليم من حيث تأسيس المدارس وتحضير المدرسين وتنظيم التلاميذ، ووضع البرامج الدراسية لذلك، وإذا كانت الدولة العثمانية لم تول إهتماما وعناية بشؤون التربية والتعليم، فهي من جهة أخرى لم تعمل على عرقلة ومحاربة التعليم الخاص (العربي الإسلامي) الذي انتشر انتشارا واسعا في هذه الفترة بشهادة الفرنسيين ويمكن أن نسمي موقفها هذا بالحياد الإيجابي[110].

كان التعليم إذن خاصا يقوم على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية ويدخل في هذا العموم رجال الدولة أيضا ولكن كأفراد مثل محمد الكبير[111]وصالح باي، فالأباء كانوا يسهرون على تعليم أولادهم كونهم كانوا يحترمون الإنسان المتعلم حيث تكفلت الأسر الجزائرية بتعليم أبناءها تعاليم الدين الإسلامي فحفظ القرآن[112] هو بداية المعرفة ثم تعلم علوم القران في المرحلة الثانوية والعالية.

التعليم وأنواعه

يعتبر التعليم من القواعد الأساسية التي تساعد على إزدهار الثقافة وانتشارها في المجتمع، وقد أدرك الجزائريون أهمية التعليم ودوره في هذا الجانب ، فلهذا كانوا حريصين على تعليم أبنائهم، وما يؤكد ذلك العدد الكبير من المؤسسات التعليمية التي كانت منتشرة في الايالة، فكان يوجد في المدن الجزائرية عدد من المؤسسات التعليمية المتمثلة في الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا. ومنها ما هو خاص يشرف عليه الأهالي، ومنها ما هو عام تتولى أمره الأوقاف، وكانت بعض الأسر تعلم أبنائها في منازلها[113]، أما في الأرياف فإن

---

[110] - عبد القادر حلوش ، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر،الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1999، ص25.

[111] - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق،الجزء 1ص 318.

[112] -Pierre Dan ,op.cit ,page28.

[113] -جيمس ليندر كاثكارت، المصدر السابق،ص56 .

التعليم كان يتم في المساجد والزوايا، وكانت كل القرى الجزائرية تحتوي على مسجد[114] الذي كان فضاء يستغل في تعليم الأطفال، إلى جانب دوره الديني والاجتماعي.

ساهمت المعمرات و الزوايا في الأرياف التي عرفت انتشارا واسعا في بداية العهد العثماني في نشر التعليم[115] كما سمح نظامها الداخلي باستقبال الطلبة الوافدين من المناطق البعيدة.

كان التعليم ينقسم إلى ثلاث أطوار خلال هذا العهد:

I- الطور الأول

يلتحق فيه الأطفال بالكتاتيب في سن السادسة وكان يشرف عليه المؤدب الذي يختاره السكان لذلك، باعتباره يعرف جيدا القراءة والكتابة، ليقوم بمهمة تعليم التلاميذ. فيتعلمون خلال هذه المرحلة القراءة والكتابة ومبادئ اللغة، وحفظ القرآن الكريم وقواعد الحساب، وكانت أدواتهم الأساسية تتمثل في الألواح الخشبية وأقلام من القصب والصلصال، وقد أشاد قنصل أمريكا السيد شالير بالطريقة التربوية المنتهجة في الكتاتيب، ولاحظ أن النظام التربوي لا يكلف إلا شيئا قليلا من المال[116]، أما التسمية الشائعة للمؤدب فهي سيدي الشيخ.

أسهمت المصادر في وصف طريقة التدريس المتبعة في الكتاتيب وحسب مصادر القرنين I2هـ وI3هـ I8م وI9م، فإن طريقة التدريس لم تتغير طوال العهد العثماني نظرا لحفاظ الناس على تعليم القرآن وفق ما درجوا عليه دون المحاولة في التجديد أو الابتكار، وفي هذا الشأن يقول إبن خلدون" إعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب في رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعد متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغار أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأنه

---

[114] - قال حمدان خوجة عن مساجد القرى الريفية، أنها مبينة على منوال المساكن بفارق واحد، هو أنها تبيض بالجير، والذين يحسنون الشعائر الدينية من بين الأهالي، يعتبرون كما نعتبر العلماء في مدننا،انظر المرآة،ص66.

[115] -ابو يعلى الزواوي ، تاريخ زواوة، مراجعة وتعليق سهيل الخالدي،الجزائر: منشورات وزارة الثقافة ، الجزائر: 2005، ص117.

[116] -وليام شالير، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824 م ، تعريب وتقديم وتعليق اسماعيل العربي، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982 ، ص57.

السابق الأول إلى القلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه ويكون حال ما يبنى عليه"[117].

2- الطـور الثانـي

كانت تشرف عليه المدارس والمساجد[118] في الوسط الحضري والزوايا في الوسط الريفي، وكان التعليم مجانا، يقوم بوظيفته المدرس المعين من طرف الباي[119] ويتلقى أجرته من الأوقاف، وكان التعليم الثانوي يضم 2 أو3 آلاف تلميذ يزاولون دراستهم في كل مقاطعة، وهو ما يمثل 20 في المائة من الشباب[120]، أما عدد المدارس فكان مختلفا من مدينة إلى أخرى ويصل في بعض المدن كتلمسان إلى 5 مدارس، وينخفض في بعضها إلى مدرستين كمستغانم، وفيها يتلقى الطالب مبادئ الفقه واللغة والنحو والصرف والفرائض والحساب ونلاحظ هنا أن التعليم كان مرتبطا بالحركة الدينية، حيث كان الطابع الديني ميزة هذه المرحلة وعاملا أساسيا في ثقافة هذا العصر[121].

3- الطـور الثالث أو العالـي

خصص الطور الثالث أو العالي للعلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث والتوحيد وغيرها وقد قال أحمد توفيق المدني في هذا الشأن".... أما التعليم العالي فكان بالمساجد والزوايا يتولاه شيوخ من المشهود لهم بالدراية والنزاهة[122]"، وهناك من لاحظ أنه رغم افتقار الجزائر إلى المعاهد العليا في حجم القرويين والأزهر والزيتونة، إلا أن الدروس كانت تلقى في بعض جوامعها تضاهي دروس جامع الأمويين بدمشق، والحرمين الشريفين، وكان

---

[117] -عبد الرحمن ابن خلدون المصدر السابق ،ص220

[118] -André Noushi, Constantine à la veille de la conquête, cahiers de Tunisie, n°11, 3TR,1955,P 386.

[119] - Emerit Marcel, l'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830, in RT. AS UP ,2°semestre, Paris ,1954,page 05.

[120] -(C) Bontems , manuel des institution algérienne de la domination turque à l'indépendance, Paris : édition cujas , tome 1, page 44.

[121] -Tayeb Chentouf, études d'histoire de l'Algérie (18 et19 siècle),Alger : OPU, 2004,page160.

[122] - أحمد توفيق المدني ،المرجع السابق ، ص 304.

المدرس بالتعليم العالي يواجه تحديات كثيرة كون ميادين التعليم ضيقة والتنافس عليها شديد من جهة وعليه اكتساب رضي الباي أو الباشا من جهة أخرى[123].

ما يجدر بنا ملاحظته حول التعليم، وجود شبه سياسة عثمانية في تبادل الأساتذة مع البلاد الإسلامية الأخرى، فقد سمح العثمانيون لعلماء غير جزائريين باستطان الجزائر والتدريس والتوظف فيها، كما سمحوا لعلماء الجزائر وطلبتها في الإلتحاق بالمعاهد الإسلامية خارج الجزائر، حتى مع البلدان التي كانت بينها وبينهم توترات سياسية كالمغرب الأقصى، بل حتى عندما يتعلق الأمر بنقل مذاهب صوفية معارضة للعثمانيين بالجزائر كتعاليم الطريقة الدرقاوية والطيبية، ويعتقد الدكتور سعد الله أن مصدر هذا التسامح في تبادل الخبرات يعود إلى عقيدة العثمانيين من الدين ورجاله، فهم رغم الإختلافات السياسية أحيانا تركوا أبواب الجزائر مفتوحة على العالم الإسلامي[124].

الدرس الثامن

العلمـاء

العلمــاء

تحدثنا فيما سبق أن الحكام العثمانيون لم يتبنوا سياسية تقوم على تشجيع العلماء للانتاج من خلال عقد المجالس العلمية والمناظرات التي من شأنها خلق جو من المنافسة المفيدة التي تثمر المزيد من العلم، غير أن هذا لم يمنع من بروز علماء خلال هذا الفترة

---

123 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 1 ،ص320.

124 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 2 ،ص323..

ومعظمهم من علماء الدين واللغة كالشيخ علي بن عبد الرحمن الذي كان عالما وفقيها وقاضي المالكية سنة 1081هـ-1671م، وكذلك العالم الفقيه أبو عثمان سيدي سعيد بن الحاج إبراهيم قدورة سنة1066هـ،1656م، الذي وصف بالورع وقد أنتفع بعلمه الكثير من طلبة العلم[125]، والعلامة أبوراس الناصر المعسكري الذي جمع العديد من العلوم والمعارف والذي سوف نتعرض لدراسة حياته بإسهاب في الفصل الثالث وغير هؤلاء كثير، فقد تحدث ابن زاكور في رحلته عن علماء مدينة الجزائر الذين أخذ عنهم وتحصل منهم على إجازات فقال:" ...غرر أعلام ينجلي بهم الإظلام وشموس أئمة تنفرج بهم كل غمة، وتفتخر بهم أخبار هذه الأمة... فاهتديت بأنوارهم السنية...ورتعت في رياض أدبهم، فتمتعت وانهلت من حياض علمهم حتى تضلعت...."[126].

بعده أشار الجامعي الفاسي في رحلته إلى الحياة العلمية في مدينة الجزائروتحدث عن علمائها فقال: "... وهي والحمد لله إلى الآن دار الجوهر الفرد ... تنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل ... وهذه المدينة لا تخلوا من قراء نجباء وعلماء أدباء، وأعلام خطباء...وكلهم متحلون بأحسن الصفات متضلعون بعلم النحو والفقه والحديث[127]..." ، وقد شكل العلماء فئة متميزة عن الطبقات الأخرى لها تأثير كبير على المجتمع سواءا من خلال دروس الوعظ أو مجالس الفتوى، حيث كان الناس يثقون فيهم ويقدرونهم أكثر من رجال الحرب والسياسة ولاسيما الفقهاء ومفتيين.

حيث جاء في إحدى عقود التحبيس تحبيس حانوت مرجعه لفقراء مكة والمدينة ،وصف العلماء الدين إستفتوا في المسألة "... أن يكون المرجع فيما ذكر بعد إنقراض نسله وعقبه لفقراء مكة والمدينة واستفتي في المسألة المذكورة العلماء الأعلام هداة الأمة ومصابيح الظلام ..."[128] .

---

[125] -عبدالقادر نور الدين ، المرجع السابق،ص199

[126] -ابن زاكور، نشر أزاهير البستان فيمن أحازني بالجزائر وتيطوان، نقلا عن مولاي بلحميسي ،الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص116

[127] -عبدالقادر نور الدين ، المرجع السابق، ص62.

[128] - الأرشيف الوطني، سلسلة المحاكم الشرعية العلبة 10 – 11 تاريخها 1109هـ - 1697م، الوثيقة رقم 75.

نفس عبارات التقدير والاحترام نجدها في عقد تحبيس آخر حيث استفتى صاحبه العلماء حول جواز تحبيس ذري جاء فيه: "واستفتي في ذلك علماء الأعلام وأيمة... الهدى ومصابيح الظلام أيسوغ مرامه[129]....".

كما تعرض الورتيلاني في رحلته لذكر عدد من علماء من مدرسين ومؤلفين ومرابطين وقضاة مفتين سواء كانوا من معاصريه أو سابقين عنه حيث قال:"...إن أهل وطننا لم يعدموا علماء ولا إفادة في كل العلوم أو جلها، قراءة وتحقيق وبحث[130]..." .

العلماء فئة إحتكرت مجالات معينة في المجتمع، وهي الإفتاء والقضاء الإمامة والخطابة و التعليم، ويذكر الدكتور سعد الله، أن رغم تعدد هذه المجالات فإنها كانت ضيقة ومحددة، ولذلك كثر التنافس عليها بينهم وكان هذا سببا في إضعاف دورهم السياسي أمام[131] الحكام، وتدنى المستوى العلمي بتقوقعهم حول أنفسهم بل أصبحوا ينظرون إلى الشعب نظرة تعال فقد ذكر تيدنا في مذكراته أحوال العلم بمعسكر قائلا "...أنهم شعب جاهل ...وهذا الجهل يعطي إحتراما ...لكل من يعرف ولو حرفا واحد من القرآن وينظر إليهم من بسطاء الشعب كقدسين[132]" .

فالعامة كانوا يحترمون العلماء ويقدسونهم لكن هؤلاء انصرفوا إلى مطالب الدنيا، مهملين حق هاته الفئة عليهم ولعل هذا هو التفسير الوحيد لتردي الأوضاع الثقافية بالجزائر خلال العهد العثماني.

حيث أناب المفتي سعيد قدورة ابنه محمدا في وظيفة الخطابة بالجامع الكبير رغم صغر سنه، وبعد وفاته أصبح محمد هو المفتي وظل في تلك الوظيفة أربعين سنة خلفه أخوه أحمد، وظاهرة توريث الوظائف تجاوزت علاقة البنوة والأخوة إلى علاقة المصاهرة ذلك أن المراجعة لتاريخ الأسر العلمية يكشف عن العلاقة العائلية بينها.

---

[129] -الأرشيف الوطني، سلسلة المحاكم الشرعية العلبة10-1 تاريخها 1093هـ-1681م، الوثيقة رقم9 .

[130] -حسين الورتيلاني ، المصدرالسابق ،ص116.

[131] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء1،ص396 .

[132] - تيدينا، مذكرات تيدينا، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسبر، تحقيق وتقديم عمراوي حميدة، الجزائر :شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة 2003،ص83

أدى إحتكار المناصب إلى غلق باب الإجتهاد وتنفير العديد من الطلبة في العلم وأسبابه ولسيما لعلماء آخرين لم تمنح لهم الفرصة ليرتقوا إلى الوظائف الرسمية ،فانصرف العديد منهم إلى أعمال أخرى لا تمت بصلة لعلمهم كالتجارة...الخ ، بل أدت في بعض الأحيان لطمسه لعدم تعهده وكل هذا بسبب تنافس وتحاسد العلماء فيما بينهم فقد ذكر الورتيلاني الصراع الشديد الذي وقع بين الشيخ عبد القادر الراشدي وعلماء قسنطينة فقال: " وقد وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة ومنازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم[133]، بل بعضهم كفره ومن الإسلام أخرجه وذلك أمر عظيم في الدين ... وإنما هو تحامل عليه سببه الحسد والغيض والتنافس، أو إنما رموه بذلك لما علموا منه كونه طويل اللسان عليهم بالعلم وقد نسبوا له كثرة الرشوة وغير ذلك مما لا يناسبه...إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان فسلم والحمد الله ،ونجا من شرهم غير أنهم أخرجوه من الموضع المعد له من القضاء وصيروه لأنفسهم[134].

هذا يعود لهبوط أخلاق العلماء فقد شاعت بينهم الرشوة والطمع وكثرة الجهل حيث ذكر العياشي في رحلته " أن خطيب الجمعة في وركلة خطب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف والتقديم والتأخير مع إدغام أكثر حروفها حتى كأنها همهمة[135]"، كماذكر الورتيلاني شيوع الرشوة بين الحكام لكي يعطوا منصب القاضي أو المفتي لبعض العلماء[136].

بالإضافة إلى التساهل في منح إجازات والتعدي على الأوقاف ومنادمة أهل اللهو والخنا وكل هذه الصفات ساهمت في ضعف الأخلاق وهبوط الضمير العلمي والإضمحلال المعرفي حيث أصبح العلم مسخرا في أغلب الأحوال لقضاء حاجات الدنيا وكأن الانتماء إلى الدين مطيه للوصول إلى الوظيفة والجاه وليس لخدمة العلم والشعب[137]، ورغم هذه الصورة الكالحة عن أخلاق العلماء في الجزائر خلال هدا العهد، هناك صورة أخرى مضيئة

---

[133] - المجسمة فرقة من الفرق الإسلامية،من رؤوسها (هشام بن الحكم) القائل أن الله جسم محدود،عريض عميق، طويل طوله مثل عرضه وعرضه مثل عمقه..." أنظر أبو الحكم الأشعري، مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء1، بيروت :المكتبة العصرية ،1990،ص281.

[134] - حسين الورتيلاني، المصدر السابق،ص 697 ،ص698.

[135] -سالم العياشي ، المصدر السابق ، الجزء 1 ، ص46.

[136] -حسين الورتيلاني، المصدر نفسه، ص111

[137] -ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق،جزء1،ص412.

ومشرفة عن هؤلاء نجد يحيى الأوراسي و عبد الكريم الفكون، أبوراس الناصر.... وغيرهم كثير.

حيث عملت السلطة[138] على إستمالة هاته الفئة من العلماء إليها لما كان لهم من مكانة وتأثير في المجتمع ونخص بالذكر رجال الطرق الصوفية إذ أن الناحية العلمية كالناحية الدينية لان هذه الفترة كانت واقعة تحت تأثير العقائد الصوفية التي وجد فيها العثمانيون سندا ودعما لحكم البلاد والعباد ولاسيما خلال القرنين 10هـ-16م-11هـ-17م حيث كان العلماء همزة وصل بين الحكام والأهالي.

على كل حال يمكن أن نقسم هذه العلاقة إلى طيبة وسيئة وحتى العلاقة الطيبة إستدعتها الحاجة وأدت إليها الظروف الملحة حيث تسجل لنا إحدى الرسائل المؤرخة في أوائل ذي الحجة [139]1050هـ بعض من ملامح هذه العلاقة فقد أرسل يوسف[140] باشا رسالة إلى محمد ساسي[141] البوني يستشيره في عدوله عن قتال الإسبان في وهران وتوجهه شخصيا لإخماد الثورة في شرق الجزائر[142] ،فأرسل إليه محمد الساسي البوني جوابا ينصح فيه الباشا بالصبر والثبات ويلتمس فيه العفو لأهل عنابة ونواحيها، وقد رد عليه يوسف باشا في أوائل صفر 1051هـ بعد أن خاطبه بألقاب الإطراء الصوفية والعلمية شرح له فيها أسباب شدته على الرعية كما وعده أنه سيعفوا عنهم تقديرا له ،كما ألح عليه بضرورة إثارة حماس رجال الدين والعلماء في إرشاد العامة بضرورة طاعة أولي الأمر[143] وذلك تذكيرا بدور العلماء نحو الأمة والحكومة بوجه خاص.

---

[138] -حسيبن الضيقة ، الدراسات الإجتماعية والسياسية للدولة العثمانية، الثقافة، المجتمع والسلطة، سوريا :دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1997،ص103.

[139] - ابو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب ،1983،ص50.

[140] - تولى حكم الجزائر عدة مرات بين سنوات 1044هـ/1064هـ .

[141] - هو محمد بن براهيم الساسي البوني كان مرابطا وعالما بارزا في عنابة خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م، ولد سنة 1720م بعنابةو توفي سنة1139هـ ترك أكثر من مائة تأليف جمعها في رسالة سماها " التعريف بما للفقير من تأليف" أنظر عبد الرحمن جيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء03،ص177 .

[142] -ثورة ابن الصخري هي ثورة الدواودة في قسنطينة عام 1637م، للمزيد من التفاصيل راجع: أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص59.

[143] - ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق،الجزء1 ، ص51.

كما حرض محمد بن أفوجيل الباشا حسين خوجة الشريف على قتال الإسبان في وهران بقصيدة طويلة إقتطفنا منها هذه الأبيات:

شاور ذوي علم ودين ناصح ودع الغواة وكل ذي تزوير

فالعلم ميراث نبوة نالــه قوم لهم حظ من التنويــر

كم في البلاد من نجيب حافظ ومشارك في النظم والمنثور

لكنهم فقدوا الإعانة واغتدوا ما أن يراعيهم ذوي التأمير[144]

وانتهز الفرصة ليقدم له فيها صورة المجتمع خلال تلك الفترة ويشكوا له حالة العلماء وما انتابهم من جراء سياسة الحكام المختلفة ،ثم يضيف إلى ذلك جملة من النصائح إلى الباشا فما كان من الباشا إلا أن تغاظا عن هذه الأخيرة رغم أنها تؤذيه وتقبلها لأنه كان في موقف يحتاج فيه إلى إلتحام الرأي العام حوله ولاسيما العلماء منهم لما لهاته الفئة من تأثير على عقول الناس.

كما يعتبر محمد بكداش من البشوات الذين حاولوا التقرب من العلماء بطريقة أو بأخرى، حيث تسجل لنا رسالة مؤرخة في جمادى الثانية 1115هـ تبادل فيها الأخبار مع محمد ساسي بوني جاء في بعض منها " أقر الله تعالى بطلعتكم السنية العيون وزادكم علما على علمكم الفاخر المصون...نهج الأفاضل وروضة الأماثل ...يتيمة الدهر و فريدة العصر الشيخ الحاج محمد[145].... "

موضوع الرسالة لم يك ذا طابع سياسي حسب الدكتور سعد الله ،وإنما جاد فيها محمد بكداش السؤال والطمأنينة على الشيخ أحمد الساسي البوني، وفي إعتقادنا أن هذه الرسالة كانت ذات ميول سياسية لأن محمد بكداش خلال تلك الفترة كان مسؤولا عن خبز الجيش[146] وهي وظيفة حساسة كان يطمح من ورائها إلى الباشوية لذلك كان يهيأ الأرضية لها بربط

---

144 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2، ص418.

145 - أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة، ص603.

146 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، الجزء 1، ص51

علاقة طيبة مع أحمد الساسي البوني، لما لهذا الأخير من مكانة ووجاهة في الشرق الجزائري وفي المشرق العربي.

على ما يبدوا أن البوني قد أدرك مقاصد الباشا فاغتنم الفرصة ورد عليه برسالة جيدة النثر والشعر ذكر فيها أحوال عنابة الإجتماعية والسياسية والثقافية المزرية، ووصف له فيها حالته المادية السيئة ولعل البوني لم يك لديه أدنى شك في عدم رفض الباشا لطلبه لأن كل واحد منهما كان يسعى لقضاء مآربه من ذلك قوله:"مطالبي كثيرة فطنتكم غزيرة[147] ".

مع ذلك فإن في كثير من الأحيان تقضي السياسة على هذه العلاقة الطيبة فكثير ما كان الحكام ينتقمون من العلماء لمجرد الشك في ذمتهم، فمحمد بكداش الذي تبادل رسائل كثيرة مع الشيخ البوني أعدم المفتي أحمد قدورة لما شكله هذا الأخير من خطر على حكمه كما حكم الديوان على المفتي محمد بن مصطفى المعروف بابن المستي بالموت ومصادرة أملاكه سنة[148] 1138هـ، وذكر أحمد شريف الزهار أن مصطفى باشا حكم على القاضي المالكي محمد بن مالك بالنفي إلى مدينة القليعة وإيقافه عن الدرس لأنه كان صهرا لعلي خوجة الذي ثار عليه[149] ،فانتقم من القاضي لظروف سياسية وذكر الدرعي أن مفتي بسكرة قد ف قد فر إلى سيدي عقبة خوفا من عاملها[150]

---

147 - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2، ص422 .

148 - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص426.

149 - أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق ، ص81.

150 - ابوالقاسم سعدالله ، المرجع نفسه، ص429.

الدرس التاسع

العلوم و اصنافها

العلـوم اللسانيـة

أ-اللغة

عرف المجتمع الجزائري خلال القرن 16م، تباينا في أصول السكان حيث شمل الأهالي المحلين (الحضر- البربر- البدو) و الوافدين من الأندلسيين و الأتراك و المسيحيين الذين قدموا من كل دول أوربا حتى أصبحت الجزائر خليطا من هؤلاء البشر[151] ، وعلى ما يبدو

3- كورين شوفالييه ، الثلاثون سنة الاولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510م-1541م)، ترجمة جمال حمادنة ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، ص75.

فإنه لم تكن هناك مشكلة في الاتصالات بين هذه التجمعات التي جاءت من كل النواحي[152]، غير أن ذلك أدى إلى ظهور عدة لغات.

فما هي اللغة التي كانوا يتكلمونها داخل المدينةّ ؟ من بين هذه اللغات نجد :

1- اللغة التركيـة

كانت اللغة الرسمية للإيالة خاصة الإدارة هي التركية العصمانلية وهي بذاتها عبارة عن مزيج من الكلمات العربية والفارسية والتركية ،كتبت بالخط العربي وهي شديدة الصعوبة للترجمة وبسبب إنشغال الجزائر بالعمل العسكري البحري، الذي تحكم في حياتها التجارية (على خلاف تونس)، فإن المساهمات التركية في ميدان اللغة قد تمركزت في الجانب العسكري ، فهناك إثنان وسبعون كلمة تركية عسكرية في طبيعتها ، من بين ستمائة وأربعة وثلاثين كلمة مستعملة في الجزائر. وهذا تراجع لظاهرة الإنغلاق التي انتهجها الحكام الأتراك بالإيالة مما أدى إلى عدم شيوع اللغة التركية خارج الإطار. فالحكام الأتراك لم يستعربوا[153] تماما مما أثر على علاقاتهم مع رعاياهم و خاصة العرب، وأدى إلى غلق باب الإجتهاد بمرور الوقت وجمود فكر العلماء بسبب تباين اللغتين.

2- اللغـة العربيـة

بقيت اللغة العربية اللغة الشائعة الإستعمال لأنها كانت اللغة التي تجمع الحضر والموريسكيين المهاجرين، وقد كانت ترافقها عدة لهجات كالأمازيغية والشاوية[154] وقد كان يتحدثها سكان الجبال المستقلون والتي يوجد ما يحمل على الإعتقاد بأنها لغة قديمة وأصلية.

3- اللغـة الفرنسيـة

هي تستعمل في دوائر الاعمال والوكلاء الاجانب الذين يقيمون بها، وقد عرفت هذه اللغة رواجا على مستوى الجهات التي كانت قريبة من الباستيون.

---

[152]- كورين شوفالييه: المرجع نفسه، ص75.

[153]- حميدة عميراوي، ملخصات وأراء في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر : شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ص22.

[154]- وليام شالير ، المصدر السابق ، ص 39

4- اللغة الفرانكا: هي اللغة التي تربط الأوربيين[155] بالموريين الذين يعيشون في منطقة بحر المتوسط و حتى على مستوى الشرق هذه اللغة الهجينة هي عبارة عن توظيف أو تجميع للمصطلحات والكلمات التي تتكون في معظمها من اللغات الإيطالية والإسبانية والبرتغالية وهي تتراوح ما بين مائة وخمسون أو مائتي كلمة[156].

استعملت كلغة عمل بين المرتزقة[157] والأسرى وكذلك التجار الأوربيين والسكان المحليين في ميدان التجارة ولا سيما تجارة الموانئ، كما كانت هذه اللغة التي أطلق عليها أيضا صبير (Sabir) تخلو تماما من أسس القواعد وهي أكثر قربا الى اللهجات الإقليمية المحلية منها إلى كونها لغة، وهي بذلك تشكل عامل الوحدة داخل تجمع سكاني متباين و مختلف[158]، إن هذا التباين في اللغات المستعملة سيؤثر لاحقا سلبا على النتاج الثقافي، لأن اللغة العربية سوف تضيع في غياب اللغات الدخيلة، وتحل محلها لهجة دارجة.

3- النثر الأدبي

يشمل المقامات والرسائل الرسمية والإخوانية والوصف، والتقاريظ والتعازي، وعقود الزواج والإجازات المنقمة التي أبدع فيها أصحابها، والشروح الأدبية والقصص والخطب، التي كان الأدب الجزائري يزخر بها خلال العهد العثماني على الرغم من وجود الكثير من الصعوبات التي كانت تعيق نموه منها :

---

[155]- كورين شوفالييه، المرجع السابق ، ص 75.

[156]- Mahfoud Kaddache , l'Algérie durant la période ottomane ,Alger : office des publications universitaires , page 201.

[157]- وليام سبينسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، تعريب و تعليق عبد القادر زبادية ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980، ص 85.

[158]- كورين شوفالييه، المرجع نفسه ، ص 76

- سيادة اللغة العربية في الأوساط الرسمية، ومزاحمة اللغات الأوروبية الأخرى التي كان البشوات يتكلمونها "لأنها اللغة الأم"، للغة العربية في الدواوين والمجالس وحتى في التجارة بل وهناك بعض اللهجات المحلية التي كانت تعيق حركية اللغة العربية في مناطق الأوراس وجرجرة وميزاب. فإبداعات العلماء وللأسف كانت تدون باللهجة المحلية مما حال دون وصولها إلى المستوى المطلوب على حد تعبير الورتيلاني الذي ثمن أعمال بعلي بن درار وسعيد فاني[159]، لكن تمنى لو كان هذا الفن باللغة العربية.
- عدم تذوق الولاة للأدب، نظرا لاختلاف ثقافاتهم ولغاتهم مما أدى إلى عدم تشجيع الأدباء والشعراء، حتى وإن وجدت بعض من إسهامات البشوات الذين حاولوا فتح الأبواب أمام مواهب العلماء والأدباء، مثل باي معسكر محمد الكبير بن عصمان الكردي الذي كان[160] من القلائل الذين شجعوا حركة النسخ والتأليف والتعليم بالعربية، فظهر علماء كبار من طراز أحمد بن سحنون الراشدي الذي كان في مقدمة أدباء عصره لكن هذه الحركة إختفت بإختفائه.

كذلك محمد بكداش[161] الذي جمع حوله نخبة من المثقفين باعتباره "قد جمع النظم والنثر والخطابة والشعر"، حيث يذكر إبن ميمون الجزائري "أن محمد بكداش كان له أدب

---

[159]- حسين الورتيلاني ، المصدر السابق، ص 187.

[160]- (A) Gorguos, histoire d'un bey de mascara et de l'oranie, le bey mohamed ben osman « el kebir » Alger :édition grand alger livres,2006, page 47.

[161]- بكداش أو باكداش أو باكتاش، كلمة تركية معناها الحجر الصلب، وقد سماه أبوه بهذا الإسم منذ ولادته، ثم لما أتى إلى الشمال الإفريقي والتحق بـ بونة سماه الشيخ قاسم إبن ساسي البوني محمدا، قال عبد الرحمن الجامعي، ثم استمر على هذا الإسم: (بكداش) المبارك وحده لا يعرف إلا به، وقد تولى محمد بكداش دايا على الجزائر سنة 1117هـ الموافق لـ 1707م، و توفي مغتالا سنة 1122هـ-1710م، على يد الداي دالي إبراهيم آغا، أنظر محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، احالة المحقق، ص 112.

غض المقاطف رطب المعاطف وأنه كان بارعا في فنون الأدب ويكتب بالسجع"، غير أنه لم يعمر في الحكم أكثر من ثلاث سنوات ونفس الشيء يقال عن صالح[162] باي في مشاريع الثقافة والتعليم، فكل هذه المبادرات عبارة عن جهود فردية ونادرة وليست قائمة على سياسة مستمرة ومرسومة، حيث أنها إنتهت بإنتهاء حكم أصحابها.

فلم نسمع قط عن حاكم من حكام الجزائر خلال العهد العثماني قد عقد جلسة علمية أو مناظرة أدبية مع علماء تلك الفترة، فمثلا محمد باشا حكم خمس وعشرين سنة دون أن نعرف أنه قدم شاعرا أو أجاز أديبا، وهذا ما يقال عن حسين باشا الذي استمر حكمه إثني عشرة سنة دون أي مساهمة تذكر، فالحاكم العثماني بالجزائر كان أداة إستهلاك لا إنتاج.

- إقتصار نشاط الفئة المثقفة على الوظائف الرسمية التي لا علاقة لها بالأدب، فالقضاة والمفتين والمدرسين والكتاب كانوا راضين بالمستوى الذي كانوا عليه، مما أدى إلى ذوبان المواهب في روتين الإدارة، بل حتى البشوات والولاة لم تكن مسألة الثقافة مهمة بالنسبة إليهم، فهم كانوا ينتقون موظفين في مستواهم الثقافي وأحيانا يفضلون المستوى الأدنى خوفا على مناصبهم الحساسة.
- هجرة العلماء والأدباء نحو المشرق العربي للحفاظ على علمهم من الضياع والبحث عن المساعدة والإعتراف، وإعداد أنفسهم للقيام بدورهم في محاولات إصلاح البلاد

---

[162]- ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2 ، ص 178.

مما حاق بها، ولعل هذه الهجرة كان من رائها عوامل طاردة Piesh factors[163] منها.

ت- الشعر وضروبه

إحتل الشعر المكانة الثانية[164] في الأدب العربي بعد العلوم الدينية خلال العثماني، حيث كان اهتمام الكتاب بالشعر خاصة، وكان في تلك الفترة يعج بالألفاظ المنمقة، وكثرة التشبيهات والتشخيصات ولم يستطع أن يتحرر من تقليد الشعراء عصر الانحطاط الذين كان همهم الوحيد اللفظ المصقول والتشبيه الرائق، وبإختصار الإهتمام بالشكل دون المضمون[165] ورغم هذا كله فإن الشعر كان مزدهرا، وقد تعددت أغراضه حسب بواعثه وهي الدين والسياسة والعواطف والمشاهدات الحسية ... إلخ، كما أدت الظروف الإجتماعية إلى توليد لون جديد من الشعر الا وهو الشعر الملحون أو العامي الذي أصبح لسان الكثير من الناس على إختلاف طبقاتهم خلال هذه الفترة .

الجدير بالذكر أن معظم دواوين الشعراء الجزائريين ما تزال في طيي الكتمان أو النسيان فنحن ندرك تماما أن المنداسي وبن عمار وابن علي و المقري وابن حمادوش وغيرهم قد تذوقوا الشعر وأجادوا فيه، لكن أضرابهم لم تنشر أو تعرف بعد بإستثناء ما عثرنا عليه مثبتا عرضا في أحد المصادر التاريخية أو الفقهية المتفرقة[166]، ولعل ظاهرة إهمال

---

[163]- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني، 1517-1798م، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، تونس : منشورات المجلة التاريخية المغربية ، الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية، 1982 ، ص 24.

[164]- فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 92.

[165]- صالح فركوس ، الداي محمد الكبير و بعث الحركة الثقافية ، مجلة الثقافة ، العدد 71 ، السنة 12 ، ذو القعدة ، ذو الحجة 1402 هـ ، سبتمبر ، أكتوبر، 1982 ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ص 19

[166]- ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2 ، ص253.

الشعر وأهله، تؤكد ما ذهب إليه ابن خلدون في قوله " أن أهل المغرب العربي قد أضاعوا رواية أشعارهم وأخبارهم، فاضاعوا أنسابهم وأحسابهم " ومن العجيب أن هذا الرأي كان حافزا لعدد من الشعراء والكتاب على تدوين الشعر كأحمد بن سحنون، في الأزهار الشقيقة،" وأبوراس الناصر" في الدرة الأنيقة " وسعيد المنداسي " في العقيقة " والمقري في " نفح الطيب" وأزهار الرياض" فكثرت الأشعار و تعددت الأغراض نذكر منها :

- الشعر الديني- الشعر السياسي- الشعر الشعبي

الدرس الثاني عشر: العلوم النقلية

1- العلوم الشرعية

يقصد بالعلوم الشرعية الدراسات القرآنية، كالتفسير والقراءات ورواية الحديث ودرايته بما في ذلك الإثبات والأجازات، وفقه العبادات والمعاملات كالنوازل والفتاوى، وقد كثرت هذه الدراسات بين العلماء الجزائريين خلال العهد العثماني، بل يمكن القول أن معظم الإنتاج الفكري خلال هذا العهد كان ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجالات الأدبية بشتى ألوانها؛ ورغم أن معظم الإنتاج في العلوم الشرعية إلا أنه تميز بالتقليد والتكرار

والافتقار إلى الجدّة والأصالة، و كثرة الحفظ حتى أن اغلب المشاهير من العلماء خلال هذا العهد كانوا يلقبون بالحافظ مثل "أبي راس الناصر" فالفقهاء قلما اجتهدوا أو استقلوا بآرائهم وإن حدث وحاول أحدهم أن يكسر هذا الجدار فإن نهايته لا تحمد عقباها ،و ظاهرة التقليد هذه أثرت على مردود الثقافة عموما، كما كانت مسؤولة على ندرة الإنتاج في العلوم الشرعية التي تحتاج إلى ثقافة واسعة وعميقة كالتفسير، ذلك أن مفسر القرآن الكريم يحتاج إلى ثقافة دينية و تاريخية ولغوية كبيرة لكي يقدم على عمله ، بالإضافة إلى الاستقلال العقلي[167].

سنحاول في هذا الصدد أن نتعرّض إلى بعض فروع العلوم الشرعية التي سيطرت على الواقع الثقافي خلال هذه الفترة:

أ – التفسير

يقصد بالتفسير تفسير آيات القرآن الكريم، وتوضيح معانيها لادراك أبعادها، واستنباط الأحكام الشرعية، ويمكن أن نتناول التفسير من ناحيتين؛ ناحية التدريس وناحية التأليف، أما تدريس التفسير فقد كان شائعا بين العلماء البارزين أمثال "محمد بن علي بهلول"، وابن لؤلؤالتلمساني، وأبو راس الناصر، وسعيد قدورة، واحمد بن عمار، ربما يكون هؤلاء قد تناولوا التفسير في مدارس التي اخذوا بها دروسهم، كالشيخ ابو راس الناصر الذي أجتمع في مجلسه أكثر من أربعمائة طالب[168]، ومن البديهي أن نقول أن كل من تناول التفسير لم يجدد فيه او يبدع ، ذلك أن ظاهرة التقليد و الحفظ كانت مسيطرة على العلماء في جميع الميادين،

---

[167]- ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 2 ، ص 11.

[168]- ابو راس محمد الناصر ، المصدر السابق ، ص 48.

ومن بينها >ميدان التفسير ذلك أن معظم المفسرين في القرآن كانوا يكررون في مجالس الدروس أقوال المتقدمين ونادراما يخرجون عليها برأي جديد يتلاءم مع أحوال العصر.

غير أننا لم نعثر على وثيقة تدل على نوع الطريقة المتبعة أثناء درس التفسير، وذكر "ابن حمادوش"أن "الشيخ أحمد الورزيزي المغربي " لما زار الجزائر سنة 1159 هـ اجتمع اليه الطلبة لسماع درس التفسير فقال " ... وفي يوم الأربعاء رابع شوّال كلف الطلبة الشيخ الورزيزي ليريهم كيف يبتدئ الناس التفسير، فاجتمعوا له ضحى في مسجد المدرسة (الجامع الكبير)، فأمر سيدي الحاج أحمد بن مسعود أن يملي عليه فأملى: بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله رب العالمين ... وشرع يشرح بما طالع في الكشاف (تفسير الزمخشري) إلى أن تتم الفاتحة، فافترقنا وكان عندنا سرور[169]"، والواضح من سياق كلامه أن هذه الطريقة في التفسير بالإملاء كانت محببة عند الطلبة و نستشف ذلك من خلال ما ختم به كلامه "وافترقنا و عندنا سرور.

روي "سعيد قدورة" أن الرحال كانت تشد إلى شيخه "محمد بن علي ابهلول[170] لشهرته في علم التفسير والحديث واضاف أيضا أن شيخه قد وصل في تفسيره الى سورة الاسراء قبل مقتله سنة 1008[171].

---

[169]- عبد الرزاق ابن حمادوش ،المصدر السابق ، ص 263.

[170]- سيدي محمد بن علي الامام العالم الزاهد ، ولد عام 945 هـ و له الباع الطويل العريض في الشعر والتقريظ، كسى علم التصوف بهجة بزاويته بمجاجة للمزيد من التفاصيل أنظر الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف، الجزء2، ص 280-ص281.

[171]- هناك اختلاف حول سنة مقتله، فذكر الدكتور سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء2 ، ص 13 انه قتل سنة 1008 هـ ، أما الحفناوي في تعريف الخلف ، الجزء 2، ص 280 أنه قتل سنة 1002هـ.

فهل كان الشيخ ابهلول يملي تفسيره إملاءا أو كان يلقيه إلقاءا على طلابه؟ وهذا ما لا تفصح عنهالوثائق حسب تعليق الاستاذ " سعد الله" و الظاهر ان الشيخ كان يفسر باللسان ولا يسجل بالقلم.

وبالتالي لا يكون تفسيره حيا أو مبتكرا، وإنما نتوقعه تفسيرا تقليديا منقولا عن السابقين، مع القليل من حذاقة اللسان وبيان العبارة لأن الشيخ كان مشهورا ببراعته في العروض والمنطق والنحو، وهي علوم تساعد على جودة التفسير.

من الذين تناولوا التفسير أيضا "عبد القادر الراشدي القسنطيني" فقد تحدث المترجمون أنه كان يعقد مجالس الفتوى و التفسير غير أنه لم يصل الينا إذا كانت هذه المجالس للتدريس أو مجالس إجتماعية يحضرها الأعيان (الوالي والعلماء)، والمعروف أن " الراشدي " كان قد تولى الافتاء و التدريس بجامع سيدي الكتاني ومدرسته، وحسب ما ورد الينا من اخباره أنه كان يقول بالتجسيم وأن بعض علماء وقته قد حكموا عليه بالزندقة والكفر وكاد يقضى عليه لولا تعاطف " صالح باي" معه، فكل هذه المواقف والآراء تجعلنا نتصور أنه كان في تفسيره شيئ من الخروج عن المألوف و عدم التقيد الرتيب بنصوص وآراء السابقين.

كما روى" محمد بن ميمون" أن مصطفى بن عبد الله البوني" الخطيب قد تولى تدريس التفسير في قوله"... ولم يكن في عصره من حملة العلم و شيوخ الافادة أقدم منه في الادب، ولا أوسع صدرا بما يرجع لطريقته من فنون الطلب، قرئ في حلقته على سبيل التفقه

تفسير الشيخ " أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله ،... فأجاد فيه التدريس، وأنس الطلبة من البيان والبديع بالامثلة الواضحة اجمل تأنيس ..."[172].

وذكر ابن زاكور في رحلته ان شيخه "ابا عبد الله ابن خليفة" قد ختم القرآن الكريم تدريسا[173]، ورغم كل هذا فإننا لم نطلع على الجديد في التفسير وإنما بقي حيز الإملاء والتقليد.

أما التفسير تأليفا فالخوض فيه قليل، فرغم شهرة مدرسة تلمسان العلمية فإنها لم تقدم مفسرين للقرآن الكريم فحتى العلماء المعروفين أمثال "أحمد الونشريسي" وابنه "عبد الواحد" لم يعرف عنهما التأليف في التفسير، ونفس الشيء يقال عن مدرسة قسنطينة و بجاية، فنظرا لشهرة "عمر الوزان" و "عبد الكريم الفكون" (الجد) خلال القرن العاشر، فإننا لم نعثر لهما على تأليف في التفسير و حتى "عبد الرحمن الأخضري" الذي برع في المعقول و المنقول غير أننا لم نعلم أنه حاول التفسير، وهكذا ينتهي القرن العاشر (16م) دون أن نسجل تأليفا واحدا في تفسير القرآن الكريم.

ذكر عبد الكريم الفكون في منشور الهداية أن جدّه قد وضع تقييدا جمع فيه الآيات التي استشهد بها "سعد الدين التفتزاني" في كتابه المطول، ولكن العناية ببعض الآيات من القرآن الكريم لا تعنى العناية بالتفسير كعلم قائم بذاته، ثم أن الرواية تشير إلى أن الشيخ "الفكون" قد جمع الآيات و لم تقل أنه فسرها أو علق عليها، وبالتالي الأمر كله لا يخرج عن نطاق عنايته بالبيان لا بالتفسير.

من العلماء الذين ألّفوا في التفسير خلال القرن الثاني عشر نجد" أحمد البوني""الدر النظيم في فضل آيات من القرآن العظيم"،و يبدو من العنوان أن "البوني" لم يتناول التفسير بالمعنى المتعارف عليه وإنما خص بعض الآيات من القرآن مستخرجا منها المعاني التي تناسب التصوف والآداب العامة[174]، اما حسين العنابي[175] الذي لم يصل تفسيره إلينا ولكن

---

[172]- محمد بن ميمون الجزائري ، المصدر السابق، ص 235.

[173]- ابن زاكور، الرحلة، نقلا عن ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء2 ، ص 16.

[174]- ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 2 ، ص 18.

رواية حفيده تدل على أن العمل كامل، فهو يقول "قال مولانا الجد الأكبر حسين بن محمد رحمه الله في تفسيره ... ومما نقل عنه تفسيره لقوله تعالى "نحن أولياؤكم" حيث قال حسين العنابي " أي تقول لهم الملائكة عند نزولهم للبشرى، نحن أولياؤكم أي أنصاركم و أحباؤكم في الحياة الدنيا فنلهمكم الحق و نحملكم على الخير، و في الآخرة بالشفاعة و الكرامة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة"[176]، و الظاهر أنه تفسير ديني بالدرجة الأولى.

من الذين ألفوا في التفسير أبو راس الناصر ومحمد الزجاي، فقد ذكر أبو راس الناصر، أنه وضع تفسيرا للقرآن الكريم يقع في ثلاثة أسفار وجعل كل سفر يحتوي على عشرين حزبا سماه" مجمع البحرين، ومطلع البدرين، بفتح الجليل للعبد الذليل في التيسير الى علم التفسير[177] نقله من كتاب الزمخشري، والبيضاوي وابن عطية وغيرهم، وبالتالي يمكننا أن نحكم بأن تفسيره هذا سيكون محشوا بالإستطرادات والحكايات وغيرها مما ألفناه في كتاباته. ونحكم أيضا بأن عبارته ستكون سهلة و ألفاظه واضحة قريبة من العامية، أما التفسير في حدّ ذاته فقد يكون مقتصرا فيه على المعاني الظاهرة التي لا تحتاج إلى كثرة الاستدلال و الاستنباط والتفرع.

أما الزجاي فله تأليفين في التفسير من خلال ما ساقه مترجموه من أخبار عنه"تفسير الخمسة الأولى"[178] وهو تعبير غير واضح فهل هو تفسير السور الخمس الأولى، أو تفسير الأجزاء الخمسة الأولى، وعلى كل حال فإن التعبير يدل على أن هذا التفسير غير كامل وأنه تناول فيه جزءا فقط من القرآن الكريم و "حواش كثيرة في التفسير" وهي تعاليق على التفاسير المتقدمة، والظاهر أن "الزجاي" كان يتبع في تفسيره طريقة الشروح المتداولة، حيث كانوا يعمدون إلى عبارة الأصل فيعربونها و يذكرون معناها أو معانيها و يستشهدون عليها، و قد يستطردون لإثراء الفكرة التي يسوقونها أو للتباهي على الحفظ وسعة الإطلاع.

---

[175]- هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري ، و شهرته ابن العنابي ، كان على المذهب الحنفي ولد بعنابة، بتاريخ لا نعرفه ، ثم انتقل الى مدينة الجزائر طلبا للجاه و الحظوة ، و تزوج بها و تثقف و عاش الى سنة 1130 ، ترك مؤلفات عديدة منها " السعي المحمود في نظام الجنود " ، " شرح الدر المخطار في الفقه الحنفي" ، " الفتح القيومي بجواب أسئلة الرومي" ، أنظر أبو القاسم سعد الله ، المفتي الجزائري ابن العنابي ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع ، ص 13، ص 41.

[176]- ابو القاسم سعد الله ، المفتي الجزائري ابن العنابي ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع ، ص 100.

[177]- محمد ابو راس الناصر ، المصدر السابق، ص 179.

[178]- ابو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، الجزء 2، ص 20.

الغالب في الأمر ان هناك أعمالا أخرى في التفسير لم نهتد إليها إما لأنها مفقودة أو لازالت شتاتا في مختلف مكتبات أصقاع العالم، وفي هذا الصدد نذكر أن "لمحمد بن علي الشلاطي" تأليف" تفسير الغريب للمبتدئ القريب" و هو عنوان مبهم لا نفهم منه بالضرورة انه في تفسير القران الكريم، كما لان فهم منه انه موجه إلى الطلاب المبتدئين في هذا الميدان.

ب- القـراءات

اشتهر الجزائريون بتدريس القراءات أكثر مما اشتهروا بالتأليف فيها وقد عرفت منطقة زواوة بالحذق في هذه المادة، ولا سيما في القراءات السبع، و من أشهر أساتذة القراءات بزواوة أواخر القرن الحادي عشر و أوائل الثاني عشر الشيخ "محمد بن صولة".

وفي تراجم" ابن مريم" روى أن" محمد الحاج المناوي" قد تصدر للتدريس في عدة علوم و لكنه مهر خصوصا في القراءات[179] و ذكر "الفكون" أثناء نقده لعلماء عصره أن "محمد بن ناجي" كان له درس عظيم ومشاركة في علم القراءات، أما التآليف في القراءات خلال هذا العهد فقد كان اقل من التفسير، وعلى ما يبدو فان اعتماد جل علماء الجزائر حينئذ كان على منظومة الخراز المسماة ب"مورد الضمان في رسم أحرف القرآن "للشريشي المعروف بالخراز المغربي، وعلى شرح محمد التنسي المسمى"الطراز في شرح ضبط الخراز[180] "، وألف محمد شقرون بن أحمد المغراوي عملا في القراءات سماه" تقريب النافع في الطرق العشر لنافع" و هو عبارة عن قصيدة لامية تبدأ

بدأت بحمد الله معتصما بـه نظاما بديعـا مكملا مسهـلا.

قسمه إلى أبواب مثل باب الاستعاذة ، باب البسملة، باب ميم الجمع ، باب المد والقصر، ...الخ، و يبدو انه استعان في شرحه على" مورد الظمآن للخراز"، ومن بين من ألف في القراءات نجد "احمد بن ثابت" صاحب "الرسالة الغراء في ترتيب أوجه القراء". وقد أوضح

---

[179]- ابن مريم التلمساني ، المصدر السابق ، ص 266.

[180]- هوابوعبد الله بن محمد الشريشي المعروف بالخراز ،من مؤلفاته مورد الظمان في رسم احرف القران،في باب تسمية الشيء باسم صانعه ،شرح على الحضرمية ،شرح على البرية ،وعمدة البين في القراءات ،توفي سنة 718ه-1318م،انظر فتح اله،احالة المحقق،ص183.

طريقته فيها بقوله"... وبعد فهذه الرسالة الغراء...سألينها بعض الثقات، ليعرف المقدم في وجوه الرواة(كذا)، فاستبنت القوي من الضعيف، وباينت المشروف من الشريف"،و قد اعتمد على المؤلفين السابقين في هذا العلم أمثال الشاطبي صاحب منظومة "حرز الأماني ووجه التهاني". والجعبري[181] وابن الجرزي ، كما أسهم "عبد الكريم الفكون" أيضا بالتأليف في القراءات بعمل سماه "سربال الردة في من جعل السبعين لرواية الإقرا(كذا) عدة[182]" وقد ذكر انه هذا التأليف كان بناءا على حادثة وقعت له مع، "احمد بن الحسن الغربي"، كما ذكر أن تأليف هذه الكراسة عبارة عن مناقشة لما ادعاه "الغربي"، ويبدو أن الفكون قد عالج فيه أنواع القراءات و رواتها وغير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع ومما يتصل بأوجه القراءات،طريقة النطق بالتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه و سلّم عند الختم. إنما أوردناه في عنصر القراءات ليس من باب الحصر، و إنما هو مجرد مثال على بعض النماذج التي استقيناها من هنا و هناك.

ت- الحديــث

يعد الحديث من العلوم الأولى التي اعتنى بها الجزائريون تدريسا وتأليفا ورواية وإجازة، ولعل هذا راجع إلى صلة علم الحديث بالدين وبالتصوف معا، كما أن علم الحديث يعتمد إلى حد كبير على الحفظ، وقد اعتمدوا في أعمالهم على الكتب الستة يدرسونها ويسندونها و يحفظونها.

غير أن عنايتهم بصحيح البخاري فاقت كل العناية فكتبوا عليه الشروح والحواشي، وتدارسوه للبركة والحفظ، واستعملوه في المناسبات الدينية والحربية إلى درجة أنه بلغ عند بعضهم مبلغ القداسة[183]. فلا نكاد نجد مدرسا من المدرسين البارزين إلا وقد برع في تدريس الحديث، وأهم الأماكن التي كان يدرس بها الحديث الجوامع الكبيرة احتراما له، وكان البعض يبالغ فيضيف إلى جو الدرس جوا آخر من البهجة والسرور برش ماء الورد في نهاية ختم البخاري و إلقاء جملة من الأدعية المناسبة و ترنيم الحديث بصوت رخيم.

181- أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2، ص24

182- أنظر عبد الكريم الفكون، منشور الهد اية في كشف حال مكن ادعى العلم والولاية،ص64.

183- ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ،الجزء2 ، ص 26.

في هذا الصدد يقول ابن حمادوش " ... وفي يوم الأحد حادي عشر رجب الموافق لثامن وعشرين يوليه، ابتدأنا سرد صحيح البخاري بالجامع الكبير، ووقفنا على كتاب الوضوء، وبعد صلاة الظهر الدراية فيه من باب غسل الرجل مع امرأته...[184]" ، وهذا دليل على أن دراسة الحديث كانت تقام عليها حصص في الصباح والمساء.

كما تضمنت مذكرات "الزهار" المناسبات الدينية والاجتماعية التي يتلى فيها صحيح البخاري وطريقة تلاوته، كما أن مصادر الحملات العسكرية ضد الأجانب تضمنت وصف للجوء العلماء الجزائريين أحيانا بأمر السلطات السياسية إلى قراءة صحيح البخاري في المساجد، أو بين أيدي المقاتلين، من ذلك ما رواه ابن زرفة في "الرحلة القمرية"، وابن سحنون في "الثغر الجماني" من أن الباي محمد الكبير قد أمر العلماء و الطلبة بقراءة صحيح البخاري عند الحملة ضد الأسبان بوهران.

نجد من العلماء الذين برعوا في الحديث عبد الكريم الفكون وابن العنابي وعلي بن الامين ويحي الشاوي واحمد المقري وابو راس الناصر وغيرهم كثير، ذلك أن الحديث لم يكن يدرس لذاته و إنما للعمل به في مجالات المعرفة المختلفة.

في ضوء ذلك عمد الجزائريون الى دراسة الطب النبوي وسيرة الرسول صلى الله عليه و سلم والصحابة وغيرها من القضايا التي تضمنها الحديث حيث ألف محمد بن علي بن أبي الشرف كتابا جرده من كتاب " الشفاء" للقاضي عياض سماه "المنهل الاصفى في شرح ما تمس الحاجة اليه من ألفاظ الشفاء، وكذلك محمد بن احمد الشريف الجزائري الذي وضع رسالة في الطب النبوي سماها " المن و السلوى في تحقيق معنى حديث لا عدوى". كما ترك أحمد المقري عدة تآليف في علم الحديث والسنة النبوية " فتح المتعال في مدح النعال"، و " أزهار الكمامة في أخبار العمامة"، و نبذة من ملابس المخصوص بالاسراء و الامامة " ، وهو بحث في عمامة وملابس الرسول صلى الله عليه و سلم و " الدر الثمين في أسماء الهادي الامين"[185].

---

[184]- عبد الزراق ابن حمادوش ، المصدر السابق، ص 216.

[185]- عبد الحي الكتاني ، المرجع السابق ، الجزء 2،ص 14

أما الحافظ أبو راس الناصر فقد ألف "الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات" بوصل أسانيده وفوائد من الحديث، و" مفاتيح الجنة وأسماءها، في الاحاديث التي إختلف العلماء في معناها"، والسيف المنتضى فيما رويت بأسانيد الشيخ مرتضى[186]".

كما كان مختصر ابن أبي جمرة لصحيح البخاري متداولا أيضا بين الجزائريين، وقد قام عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي بشرحه شرحا يضبط ألفاظه و يقرب معانيه و سمى شرحه " فتح الباري في ضبط ألفاظ الاحاديث التي إختصرها العارف بالله " ابن أبي جمرة" من صحيح البخاري". وهناك تآليف أخرى في علم الحديث والسنة سنذكر بعضها على سبيل المثال الحصر من ذلك تأليف "عبد العزيز الثميني" الذي سماه مختصر حاشية مسند الربيع بن حبيب" و هو في ثلاثة أجزاء،وعيسى الثعالبي الذي وضع رجزا بعنوان" مضاعفة ثواب هذه الامة"، وهناك عمل آخر ينسب الى قاسم بن محمد ساسي البوني سماه" المنحة الالهية في الايات الاسرائية".

من خلال ما سبق يمكننا القول أنه بالرغم من عناية الجزائريين بالاحاديث عموما. وبصحيح البخاري خصوصا، إلا أن التأليف فيه لا تقارن بهذه العناية، فهي لم تخرج عن بعض الأمور التقلدية مثل الشروح و الحواشي و الاراجيز و الرسائل الصغيرة ، فهل جهود الجزائريين في ميدان الحديث سوف تعكس على الاثبات، والفهارس والاجازات؟ هذا سوف نقف عليه فيما يلي:

ث- الأثبـات[187]

شاع في الجزائر خلال العهد العثماني حفظ الحديث واسناده وقراءته وإقراؤه، كما شاعت كتابة الأثبات أو الفهارس التي كان العالم يسجل فيها مروياته في الحديث بالسند، والكتب التي قرأها في صحيح البخاري وغيره من الكتب الستة المشهورة، كما يسجل شيوخه التي درس عليهم ولا سيما شيوخه في علم الحديث، وكانت هذه الأثبات تتداول بين العلماء

---

[186]- محمد ابو راس الناصر ، المصدر السابق ، ص 179.

[187]- السند: هو تسلسل الرواية من المحد ث إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قد توسع فيه العلماء و جعلوه لكل علم، بل و لكل كتاب سند يصلهم بواضع العلم أو مؤلف الكتاب، علي زوين، معجم مصطلحات توثيق الحديث، بيروت:مكتبة النهضة العربية 1968، ص12.

ولا تعرف حدودا، فهي تنتقل مع الحجاج أو ترسل بالبريد أو تحفظ عن ظهر قلب أو تكتب مطولة أو مختصرة في شكل إجازات.

يعتبر الثبت الغني بالشيوخ والإجازات و القراءات علامة على تبحر العالم، أما من حيث الناحية الشكلية فإن الثبت يكتب إما كسجل تاريخي شخصي، وإما لمنحه إجازة لأحد العلماء الراغبين، و من الذين تركوا ثبتا أوائل العهد العثماني "محمد شقرون ابن أحمد الوهراني".

أما في القرن الحادي عشر اشتهر" احمد المقري" برواية و دراية الحديث و له سند الحديث[188] عن شيوخه من المغرب و المشرق ضمنه في كتابه "روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش و فاس" وهو مجموعة من شيوخه في السند، و يذكر بعض الباحثين أن للمقري "فهرسة" بأسانيده.

شهد القرن الثاني عشر موجة من العناية بالحديث رواية ودراية على يد "أحمد البوني" و" أحمد بن عمار"[189]، و "علي بن الأمين" و "عبد القادر الراشدي"، و "المنور التلمساني" ولقد كان من العلماء البارعين في رواية الحديث وله ثبت في نحو الكراسين يسمى "منتخب الأسانيد في وصل المصنفات والأجزاء والمسانيد" وهو سلسلة من الإجازات والمرويات التي جمعها عنه تلميذه "إبراهيم السيالة التونسي"[190].

خص "أبو راس الناصر" شيخه المرتضى الزبيدي بثبت سماه" السيف المنتضى فيما رويته عن الشيخ مرتضى"، ومن المعاصرين لأبي راس "أبو طالب محمد" المعروف بإبن الشارف المازوني (ت 1233هـ) الذي اشتهر بكثرة الأسانيد جمعها "عبد القادر بن المختار الخطابي الجزائري" سماها "الكوكب الثاقب في أسانيد الشيخ أبي طالب"، أما "حمودة بن محمد المقايسي" فقد جمع أسانيده في ثبت خاص سماه" الشيخ الصالح الوجيه الورع الفاضل المفيد السيد الجليل والماجد النبيل"، وهو الاجازات التي تلقاهامن العلماء امثال "المرتضى

188- ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2، ص35.

189- سترد ترجمته في ثبت شيوخ أبي راس الناصر، الفصل الثالث ص251.

190- ابو القاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص40.

الزبيدي ، محمد الامير الدسوقي و العدوي و محمد بن عبد الرحمن الازهري منشئ الطريقة الرحمانية بالجزائر.

ح- الفقــه

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في معرفة أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة. وما نصه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه[191]. وعندما نتحدث عن الإنتاج الفقهي في الجزائر فمن الطبيعي أننا سنركز على إنتاج الفقه المالكي كونه المذهب المتبع بالجزائر، ولكن منذ مجيء العثمانيين انتشر المذهب الحنفي وظهر علماء كتبوا ودرسوا وأفتوا على قواعد الإمام "أبي حنيفة". وحتى و إن كان معظم التآليف في فروع وأصول المذهب المالكي، فهذا لا يعني أنه لم يكن لعلماء المذهب الحنفي تآليف و آراء.

الدرس الثالث عشر

[191]- عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ص 353.

الحواضر الثقافية (تلمسان، بجاية، مدينة الجزائر، قسنطينة، مازونة، معسكر...)

كما ذكر ويليام ليثجو في القرن 11 عشر (17م) أن الجزائر كانت عامرة[192] بالمساجد وهذا يدل على أن المساجد كانت كثيرة غير أن لا أحد من هؤلاء الرحالة والمؤرخين قد فصل في عددها أو في قدمها او حداثتها

غير أن Devoulx الذي بحث في موضوع المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر قال أنه كان بها سنة 1246هـ-1830م زهاء 13عشر جامعا (جامع للخطب) ومائة وتسعة مسجد وهي إثنان وتسعون مسجدا مالكيا وأربعة عشر مسجدا حنفيا. وهذا الاختلاف في الإحصاءات شمل أيضا حواضر مدينة الجزائر مثل قسنطينة ففي عهد صالح باي الذي إعتنى بإحصاء المساجد و ترميمها وتشييدها بلغت كما ورد في السجل خمسة وسبعين مسجدا وجامعا بالإضافة إلى سبعة مساجد تقع خارج المدينة. أما الورتيلاني فقد ذكر في رحلته " أنه كان بقسنطينة حوالي خمسة جوامع خطبة وأن بعضها كان متقن البناء".

اشتمل إقليم عنابة على سبعة وثلاثين مسجدا أشهرها جامع أبو مروان وشيد صالح باي الجامع الجديد سنة 1206 وهو الجامع الذي نقشت عليه هذه الأبيات:

لعمرك بيت الله للستر جامـع مشيد أركان به النور ساطع

بدت دونه زهر الكواكب رفعة به بونه للسعد فيها طالــع

به جاد تاج الدين والمجد صالح إلى درج العلياء راف وطالع[193]

إشتهرت بجاية بالمساجد العتيقة والحديثة ومن أحدثها ما أمر ببنائه مصطفى باشا سنة 1212هـ كما بنى أحمد القلي باي قسنطينة جامعاسنة 1170هـ، إمتنانا منه لأهل القل الذين ساندوه عندما كان آغا عليهم.

---

[192] - وليام ليثجو ، الجزائر في القرن السابع عشر لرحالة أسكتلندي ، تقديم ميشال أبار ، ترجمة حنفي عيسى ، مجلة الثقافة ، العدد 3سنة 1391 هـ جويلية 1971 ، ص 45.

[193] - ابوالقاسم سعد ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 247.

تذكر المصادر أنه كان بتلمسان في آخر العهد العثماني خمسون مسجدا أغلبها صغيرة، وهناك من يعطينا رقما إجماليا للمدينة وضواحيها حيث بلغت ستون مسجدا[194] وأهمها المسجد الكبير والذي يوجد بوسط المدينة إضافة إلى هذا المسجد فقد كان هناك مساجد الأحياء وهنا نشير إلى مسجد سيدي بومدين ومسجد حي الحضر ومسجد المشور .

أما مساجد مدينة معسكر فأهمها المساجد الثلاثة الرئيسية مسجد السوق والمسجد الكبير أو جامع العين البيضاء وقد إستفاذت هذه المساجد من إصلاحات الباي محمد الكبير العمرانية والثقافية والمعروف أن هذا الباي قد شيد المسجد الكبير المعروف باسمه ويعتبر هذا المسجد أروع وأهم مساجد الإيالة[195] أما أهم مساجد الأحياء فنذكر منها حي عرقوب إسماعيل.

تمثلت مساجد مازونة بعد المسجد المركزي في مساجد الأحياء الأربعة، حيث أن كل حي كان يضم مسجدا وبلغ عدد مساجد ندرومة 12 مسجدا، وأهمها المسجد الكبير الذي يوجد بحي التربيعة والذي يعود تاريخه إلى عهد المرابطين. أما المدية فقد كان فيها أواخر العهد العثماني حوالي أحد عشر مسجدا منها الجامع الكبير الذي يعود تاريخه إلى 1127هـ وجامع سيدي المزاري الذي بناه مصطفى بومزراق باي التيطري، والجامع الأحمر الذي شيده الباي حسن حوالي1213 هـ ورغم وفرة المساجد فهذا لا يدل على العناية بها فقد سجل بعض المؤلفين والملاحظين ملاحظة حول إهمال المساجد والوقف عليها بما يحفظها ويصونها، فقد كان بعضها خربا وبعضها سيء البناء أصلا وبعضها محروما من الأوقاف لتجديده.

كماإشتكى أحمد ساسي البوني إلى الباشا محمد بكداش خراب المساجد في عنابة وخلوها من المصلين والعباد في قوله:

---

[194]- Joseph Comal , monographie de l’anfondissement de Tlemcen in B.S.G.A.O T.V III ;1887.page 107.

[195] - (a) Georguos ,notice sur le bey d’oran mohamed el kebir ,in RA N°1 Annee1856-1857 , Alger : office de publication universitaire ,page 408.

خربـــت المساجـــد وقـــل فيـــها الساجـــد[196]

جاء بعده الورتيلاني وعز عليه عدم العناية بالمساجد وأوقافها خاصة بقسنطينة وبسكرة في قوله:" فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث... ولا واهيا قد أصلح، بل لو سقط شيئ من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه اذا كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر أو جص، وإن كان مجصصا أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه معرقة فقير هندي فيه من كل لون رقعة ... وما أرى ما حال بمغربنا من الوهن إلا بسبب أمثال هذا"[197].

فالورتيلاني قد عاب على الجزائريين عموما والحكام العثمانيين خصوصا عدم اهتمامهم بالمساجد لأنها ملتقى العلماء محاولا أن يشد انتباههم إلى أهميتها في حياة الفرد والمجتمع، آملا أن تصير هذه الأخيرة إلى مستوى مساجد تونس ومصر والحجاز.

على ما يبدو فإن الورتيلاني قد نجح في مقصده في استنهاض عزائم الوجهاء لتعويض هذا النقص وفي أواخر القرن الثاني عشر (18) عكف البايات[198] على تشييد المساجد وترميمها ووقف الأوقاف عليها نهض صالح باي بقسنطينة يتدبر الأمر ويحصي المساجد وأوقافها ويحاسب الوكلاء القائمين[199] عليها وجد بعضها وأنشأ لذلك مجلسا علميا خاصا للنظر في شؤونها،وبنى محمد الكبير الجامع الأعظم[200] بحاضرة معسكر في فاتح ذو القعدة سنة 1195هـ الموافق لنوفمبر 1781 م من ماله الخاص وأوقف عليه أوقافا كثيرة .

كان عدد المساجد القائمة ولو كانت في غير المدن الرئيسية كثيرا جدا إلى درجة أنها لا تحصى وهي بين كبيرة وصغيرة ذات أشكال وتصميمات هندسية بديعة[201]، كانت تلفت

---

[196] - ابوالقاسم سعد الله ،المرجع السابق، الجزء 1 ، ص249.

[197] - حسين الورتيلاني ، المصدر السابق، ص266.

[198] - Chems Eddine Chitour,histoire, de l'algerie , religieusede l'algerie , l'indentité et la religion face à la modernité , enagedition distribution- alger :2001, page 119.

[199] - Isabelle G Rangroud , la ville imprenable .une histoire sociale de Constantine au 18eme siècle, paris : édition l'école des hautes étude en science sociale , 2002, page 258.

[200] - بن عتو بلبراوات ، المرجع السابق ، ص199.

[201] - Rozet et Carette , Algerie ,l'état tripolitain , tunis : édition bouslans, 2eme édition , page 15.

انتباه الرحالة وتثير إعجابهم خاصة المغاربة فقد أعجب العياشي بصومعة جامع تماسين العالية جدا والتي تحتوي على حوالي مئة درجة ، وأشاد الدرعي بجامعة بسكرة الذي كانت له مئذنة في غاية الإتقان والطول في قوله:"والمسجد واسع جدا متقن البنا"، كما أعجب الدرعي بمسجد عين ماضي وجوامع سيدي عقبة وأولاد جلال وتقرت وغيرها في المدن[202] والقرى.

كما أعجب الرحالة الأوربيون بهندسة بناء المساجد في المدن الجزائرية وزخرفتها الجميلة بالفسيفساء والنقوش العربية،وأفرشها بالزرابي ذات الجودة العالية في أغلب الأحيان غير أنه بمجرد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م سارع الضباط إلى طمس هذه المعالم الحضارية وقد حولوا جامع كجاوة إلى كتدرائية وجامع علي بتشيني إلى كنيسة وجامع سوق الغزل بقسنطينة إلى كتدرائية أيضا كما قامو بهدم أغلب مساجد العاصمة مثل جامع السيدة وكذلك مساجد عنابة والمدية وقسنطينة[203] وغيرها من المدن الجزائرية.

كانت مدينة الجزائر قبل العهد العثماني تحتوي على عدة مساجد كالجامع الأعظم أو الجامع [204] الكبير والذي ما زال يحمل نفس الإسم إلى اليوم وقد كان ذا أهمية خلال الحكم العثماني بالجزائر، إذ كان المكان الذي تعقد فيه جلسات القضاء الأعلى أو ما كان يعرف بالمجلس الشرعي حيث كانت ترفع إليه القضايا المستعصية وكان يتألف من القاضيين والمفتيين المالكي والحنفي، وكانت ترفع لديه النوازل والمنزاعات الصعبة أي كان بمثابة محكمة استئناف تراجع فيه الأحكام وأحيانا كان يحضر المجلس حاكم الجزائر أو ممثل عن المؤسسة العسكرية والذي كان يعرف بيباشي وقد ورد ذكره في إحدى الوثائق المتضمنة قضية بث فيها المجلس العلمي حيث تم الإشارة إلى حضوره عند التطرق إلى الحكم ونص ذلك: "... بمحضر المعظم محمد بيباشي الموجه من قبل العسكر المنصور لحضور المجلس المرقوم بتاريخ أواخر شهر رمضان قدره من عام خمسة ومايه وألف...[205]"، ومسجد سيدي

---

[202] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص251

[203] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع نفسه، ص251

[204] - Tal Shuval ,la ville d'alger vers la fin du xv111 eme siècle ,paris ,édition GNRS ,1998.page 191

[205] - الأرشيف الوطني ، سلسلة المحاكم الشرعية العلبة 76-1،الوثيقة رقم3 ، تاريخها 1099- (1688م) .

علي رمضان الذي كان يقع في أعلى المدينة بالقرب من القصبة القديمة[206] وقد سمي على ولي صالح مدفون فيه وهو بسيط جدا ليس فيه أدنى زخرفة، أما جامع القشاش[207] فقد كان يعتبر من أجمل جوامع مدينة الجزائر حسب ما ذكره هايد وألحق بزاوية عرفت باسمه[208] وهذا سنة 1069هـ- 1659م والتي اشتهرت بالتدريس خلال هذه الفترة كما أشاد بها أبو راس خلال رحلته.[209]

كانت المساجد بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني بعضها ما هو تابع للمذهب المالكي ومنها ما هو للمذهب الحنفي ويعتبر جامع "السفير" أول مسجد حنفي وقد نقشت على بابه الرئيسي "، ... وبعد فهذا مسجد عظيم، ومقام كريم، أسس على التقوى بنيانه وارتسمت على السعادة والتوفيق أرجاؤه وأركانه، أمر ببنائه الفقير إلى مولاه مملوك مولانا السلطان الكبير المعظم الشهير المجاهد في سبيل رب العالمين، مولانا خير الدين أيده الله ونصره وهو عبد الله سبحانه سفر غفر الله ذنبه" وقد كان يعتبر تحفة في الفن المعماري فقد كان مدهشا بقبته البيضاوية وأعمدته القديمة ومحرابه المغطى بزليج فارسي جميل وما يميزه أيضا أنه بني خلال مدة تسعة أشهر فقط حيث شرع في بنائه في شهر رجب من عام 940هـ الموافق لشهر جانفي 1533م وانتهى بناؤه في شهر رجب 2 ربيع الأول من عام 941هـ الموافق لشهر 11 سبتمبر 1534م.

كما تسابق الوجهاء العثمانيون في تأسيس مساجد للأحناف في كل عاصمة، وجميعها كانت موضوعة تحت إدارة مؤسسة سبل الخيرات أبرزها الجامع الجديد، وقد امتازت المساجد العثمانية بدقة البناء واستعمال الزليج والرخام في العرصات والمحراب والتأنق في المنبر وقناديل الزيت، والزرابي الفاخرة، والزخرفة بالنقوش العربية والتركية على الجدران والعناية بالعيون والإضاءة والنظافة وكثرة الأوقاف.

---

[206] - De voulx , op -cit , page 173.

[207] -ابوالقاسم سعد الله المرجع السابق، الجزء 1 ، ص251

[208] - حسب هايدو فإن الجامع تأسس سنة 1579 ، من طرف أحد المورسكين الذي يسمى القشاش ، أنظر , Haedo topographie, page 208

[209] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع نفسه، الجزء 1 ، ص252.

أما مساجد الأهالي كانت في الجملة متواضعة، مبنية بالجبس أو الجص أو الحجر وقائمة على عرصات ضخمة وصوامع منخفضة وليس فيها من الفرش سوى الحصير أو الزرابي البسيطة مع القليل من الإضاءة والعناية بالنظافة وهي في أغلبها المساجد المؤسسة قبل العهد العثماني.

تختلف المساجد عن الجوامع، فهي في الغالب أقل جمالا وتأنقا، وكانت في معظم الجوامع توجد المكتبات الموقوفة على القراء والطلبة والأساتذة، وتختلف الكتب الموقوفة كثرة وتنوعا، وفي بعض الأحيان لا تحتوي غير الكتب الدينية والصوفية كالقرآن الكريم وصحيح البخاري وتنبيه الأنام ودليل الخيرات وكتب الادعية والأذكار، غير أن بعضها الآخر كان يحتوي على كتب في علوم مختلفة من أدب وطب وفقه وتاريخ ورياضيات وغيرها، ومن أهم ما كان يلحق بالجوامع الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، والزوايا لمبيت الطلبة والغرباء، ومن التوابع الضرورية للجوامع المبيضات والعيون للطهارة والاستحمام.

من أشهر المساجد في غير العاصمة نجد جامع الباي محمد الكبير بمعسكر الذي صممه تصميما بديعا وأوقف عليه أوقاف كثيرة حتى يكون في وضع ينافس به القرويين بفاس.

- يتضح مما سبق أن عدد المساجد في الجزائر خلال العهد العثماني كان معتبرا وقد إشترك في تأسيسه الأهالي والحكام العثمانيين بدوافع دينية محضة . كما أوقفوا عليها الأوقاف التي لم تسلم من اختلاسات السلطة أو من الوكلاء، غير أنها تعطينا الإحساس المشترك بين الجزائريين والعثمانيين بالإنتماء إلى الدين الإسلامي.

الدرس الرابع عشر

التصوف والطرق الصوفية

التصـوف: كانت الثقافة الدينية هي الثقافة السائدة بالجزائر خلال العهد العثماني، الذي اتسم بانتشار ظاهرة التصوف وسيطرتها على توجيه مسار الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية وحتى العلمية منها بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلا[210] له، و ذلك بتشجيع من الأتراك الذين كانوا يعتقدون في الطرفية.

فكثر الإنتاج في الميدان، وتنوعت الكتب والرسائل والتقاليد والمنظومات التي تتناول التصوف من قريب أو بعيد، كالأذكار والأوراد والردود والمناقب والمواعظ والحكم والشروح الخاصة بالقصائد الصوفية، والمدائح النبوية التي تنظر إلى الرسول صلى الله عليه و سلم نظرة صوفية روحانية[211] وسنحاول في هذا الصدد أن نتناول بعض هذه الأعمال.

رغم تقادم الزمن، فقد كانت أعمال ابن صعد " النجم الثاقب"، وأعمال محمد بن يوسف السنوسي، وتأليف أحمد النقاوسي"الأنوار المنبلجة من الأسرار المنفرجة" على قصيدة ابن النحوي، وأعمال الحوضي و أحمد بن عبد الله الجزائري، و عبد الرحمن الثعالبي، وغيرهم مصدرا هاما للتأليف في التصوف وفروعه، حيث عكف على دراستها

---

[210]- حبار مختار، الحضور الصوفي في الجزائر على العهد العثماني، مجلة التراث العربي، العدد7-5، السنة 1994، ص55.

[211]- Henry Garrot, histoire general de l’algerie, paris : imprrimerie perexenza voute Bastion Word 1910, page 621.

والإقتداء بهم عدة علماء أمثال ابن مريم والفكون، والورتيلاني والبطيوي، ومحمد بن سليمان، والصباغ والبوني باهتمام دون معارضة أو إنتقاء، ولا نكاد نجد الإستثناء في هذا الحكم إلا عند نزر قليل من هؤلاء مثل الفكون في "منشور الهداية". حيث ثار في القرن الحادي عشر ضد المتصوفة الدجاجلة المتشدقة الكذابين، وابن العنابي على الدراويش[212]، كما كتب عبد الرحمن البهلولي شعرا في نقد البدع، فانتشرت الدعوة بين بعض المتعلمين ضد المبتدعة من الصوفية في ذلك العصر.

والملاحظ أنه لم يك العثمانيين وحدهم المسؤولين عن تدني المستوى الثقافي في الجزائر بل شاركتهم في ذلك بعض الفئات الشعبية.

لعل الوضعية الثقافية ومستوى الحياة العقلية التي طبعت البلاد خلال هذه الفترة، لها أثرها العميق في انتشار التصوف وكذلك المسار الذي أخذه. فإذا كان التصوف في الفترة المبكرة من ظهوره قد اقتصر على النخبة التي تتمتع بثقافة واسعة وهي الثقافة الدينية في الغالب وارتكز على ما يعرف بالتصوف النظري الذي يتطلب قدرا عاليا من الثقافة وجمعوا إليها السلوك المستقيم فنالوا بذلك احترام مختلف شرائح المجتمع خاصة الحكام.

اعتنى العثمانيون وفي مقدمتهم خير الدين بربروس بالطريقة الشاذلية بالجزائر التي مثلها أحمد بن يوسف الملياني وأتباعه كما كان بعض البشوات يمنحون في مناسبات معينة جزءا من جزية أهل الذمة إلى بعض المرابطين والدراويش[213]، غير أن اكتساح التصوف مختلف الشرائح الشعبية يفضي إلى ما يعرف بالتصوف العملي مما لا يتطلب ثقافة واسعة حيث ظهر صنف من المرابطين لا يمثل المتصوفين الحقيقيين فأصبحت اهتمامات المريدين منحصرة في أعمال الحضرة وما يصاحبها من حركات، "فقد استمال الصوفية العامة بظواهرهم، فمالت إليهم لتقريبهم لها طريق السعادة بالرياضة التي هي على العامة أيسر من العلم وباعتقاد أن شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين[214]".

---

[212]- ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2 ،ص119 .

[213] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء 1 ، ص 476 .

[214] - مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، لبنان : دار الغرب الاسلامي ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزء 2 ، ص 343 ، ص 344.

نصبح بذلك أمام إشكالية يصعب الفصل فيها: هل التصوف ورجاله مسؤولين عن تدني المستوى الثقافي ؟ أم أن تراجعه هو الذي جعل التصوف يأخذ هذا الاتجاه؟.

يبدوا أن الطرح الثاني أكثر قبولا واستساغة ذلك أن هناك علاقة لا يمكن إغفالها وهي أن انتشار التصوف بين عامة الشعب من ذوي المستويات الثقافية المحدودة جدا هذا إذا لم نقل أن أكثرهم كان لا يتوفر على أدنى حظ من الثقافة.

روى الفكون أن المرابط قاسم بن أم هاني كان له رعايا وأتباع كثيرين في قسنطينة ونواحيها ،وكان له " فقراء يرقصون ويشطحون و لعابهم يسيل وربما يتضاربون[215]." من جهة أخرى كان الشيخ أحمد بوعكاز قد انتصب لاتخاذ الطريقة والمشيخ وإقامة الحضرة فقصده الناس زرافات ووحدانا، وقد وجد فيهم التربة الخصبة لبث جهله ولاسيما حينما ادعى أن تسهيل الأمور بيده وأنه شاوش الصالحين.

حيث سقط في شراك منتحلي التصوف قطاع واسع من الفئات الشعبية التي استسلمت لبدعهم ولما كانت تروجه من كرامات، ولما كانت تنشره من أعمال الشعوذة في بعض الحلقات التي كانوا يعقدونها وهذا ما جعل الحياة الدينية تعرف تراجعا كبيرا لصالح بعض الطقوس المشبوهة والتي سوف تؤثر بدورها على المستوى العلمي لأفراد المجتمع، خاصة بعد أن وجد أولئك المتصوفة ضالتهم في سذاجة أولئك العوام وضحالة مستواهم الثقافي، وقد عبر عن ذلك الفكون قائلا: " فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلمت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا[216]."

هذا دليل قاطع على المرض الذي أصاب المجتمع الجزائري آنذاك دينيا وسياسيا ثقافيا وأخلاقيا فهذا الصنف من أدعياء التصوف كان يستعمل جميع الوسائل لاستغلال العامة ونشر الجهل والخرافة بينها.

---

[215] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ص 118.

[216] - عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص 46.

كثر في هذا الجو المشبع بالروحانية[217] المدعون للتصوف والمتكسبون بالدين والولاية والإنحراف عن المسار الحقيقي للدين الإسلامي وبالتالي تصدع البنى التحتية للثقافة خاصة عندما سيطرت فكرة الحضرة والشعوذة على عقول الناس الأمر الذي ولد رد فعل من قبل بعض العلماء الفقهاء من إنقاذ صريح للتصوف وبعض رجاله مثل الفكون في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية وبعض التآليف الأخرى المعادية لهذا التيار البدعي غير أن ظروف المجتمع خلال تلك الفترة قد خدمت هذه الفئة بطريقة أو بأخرى.

أدى الفساد السياسي للحكم العثماني بالجزائر إلى تواطؤ الحكام ماديا ومعنويا مع أشباه المتصوفة، فقد عرف عن العثمانيين أنهم كانوا يكثرون الهدايا والعطايا للمرابطين إرضاء لهم واستمرار هذه الفئة في إشغال العامة بواسطة الحضرة ورقصات الغنا التي كانوا يقيمونها عما يجري في البلاد، فالعامة خاصة الفقراء منهم كانوا يجدون في هذه التجمعات منتفسا لهم من ضغط الحياة الاجتماعية فتضمن السلطة إلهاءهم عن المطالبة بحقوقهم ويضمن المتصوفة طريقة لكسب قوتهم بلا عناء.

كما شاركت الطرقية في الجمود الثقافي والركود العلمي خلال العهد العثماني ولعل الأمر لم يقف عند هذا الحد فسرعان ما تساعد ظاهرة أخرى تفشت في المجتمع الجزائري عصرئد على الزيادة من هذا التدني ألا وهي ظاهرة الهجرة التي انتهجها معظم العلماء الجزائريين متخذين وجهتهم سواء نحو المشرق أو المغرب العربيين،

الدرس الخامس عشر

[217] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص 486.

كما اتجه عدد كبير من العلماء نحو المغرب بعد فشل الحملة السعدية على تلمسان حوالي 968هـ حيث رافق السلطان السعدي بعد عودته إلى بلاده كثير من العلماء من بينهم أحمد بن أحمد المعروف بابن الوقاد[218] التلمساني (ت 1001هـ)، ومن العلماء الذين غادروا تلمسان، واستقروا بفاس سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني (908-981هـ-1501م-1573م) وهناك تقلد وظيفة الإفتاء والخطابة إلى جانب براعته في الفقه والحديث والادب، توفي بفاس (981هـ-1573م) أما عبد الرحمن المغراوي المدعو ابن جلال (908هـ-1502م) كان من مقر بي السلطان السعدي وقد استقر بالمغرب الأقصى بعد حملته على تلمسان فتولى وظيفة الإفتاء والتدريس والخطابة بجامع الأندلس ثم بجامع القرويين لأكثر من عشرين سنة.

غير أن هجرة العلماء الجزائريين لم تك كلها لأسباب سياسية فقد كان طلب العلم أهم مقصد لهم حيث شكل الأزهر والزيتونة والقرويين أهم المراكز الثقافية والدينية يؤمها[219] الطلاب من الجزائر تونس وغيرها ضف إلى ذلك وفرة المكتبات وتقدير ولاة هذه الامصارالاهل العلم.

فعن اعتناء ولاة تونس بالعلماء ونشر الثقافة يقول الورتلاني: "نعم سلاطين تونس[220] وأمرائها وأصحاب الدولة فيها صرفوا همهم إلى العلم، وأقاموا منائر عزه، فبنوا المدارس وأوقفوا الأحباس، وأعزوا العلماء."...

- القلاقل والنزاعات السياسية المحلية حيث كانت من بين أسباب الهجرة وقد حدث ذلك لعيسى التعالبي في عهد يوسف باشا ويحيى الشاوي وقد هاجر كلاهما إلى المشرق والأمر نفسه وقع للشيخ المتصوف أبو العباس أحمد تيجاني شيخ الطائفة التيجانية[221]

---

[218] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء الأول، ص 432.

[219] - زاهية مصطفى قدورة، تاريخ العرب الحديث، لبنان: منشورات دار النهضة العربية ، الطبعة 2، ص 474.

[220] - حسين الورتيلاني، المصدر السابق، ص 662.

[221] - شهاب الدين أحمد الناصري الدرعي السلاوي، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، إعتنى به محمد عثمان، لبنان : دار الكتب العلمية، الجزء 8، ص 105.

في عهد الباي محمد بن عثمان حيث أزعجه فهاجر إلى فاس فاستوطنها، وكتب إلى السلطان المولاي سليمان يعلمه أنه هاجر إليه من جور الترك وظلمهم ،واستجار منه بأهل البيت الكريم فقبله السلطان وأذن له في الدخول عليه والحضور بمجلسه، ولما أجتمع به ورأى مشاركته في العلوم قربه إليه وأحسن إكرامه.

- -كثرة الأوبئة والنكبات الطبيعية،[222] فإذا كانت هذه النكبات تترك آثارها على كل الناس وتصيب المجتمع فإن آثارها كانت وخيمة خصوصا على فئة العلماء نظرا لقلتها، وتتحدث كتب التراجم عن العلماء الذين أودى بحياتهم الطاعون، فصاحب البستان يذكر الطاعون الذي حدث سنة 981هـ والعلماء الذين كانوا ضحية له أمثال محمد أبو السادات ومحمد الجادري، ومحمد بن موسى الوجديدي.

يذكر الفكون أيضا الطاعون الذي حدث سنة 982هـ وسنة 1031هـ ويذكر ضحاياهما من العلماء أمثال محمد التواتي، وأحمد بن ثلجون، وبركات المسبح، وعبد اللطيف بن عبد الكريم بن سعيد[223].

ضف إلى هذا عوامل السجن والنفي والإعدام والإبعاد عن الوظائف السياسية ونحوها،التي توحي بالجو الذي كان يعيش فيه علماء الجزائر في العهد العثماني أدركنا بالضرورة أنه لم يك جوا يساعد على الاستقرار والإنتاج، ويعتبر سعيد المنداسي من أبرز الشعراء المهاجرين إلى المغرب الأقصى، لأسباب سياسية وهو صاحب القصيدة المشهورة "بالعقيقة" وقد قال في الترك هجاء لاذعا، ففر بصوابه ليقتلوه ففر إلى السلطان محمد بن شريف العلوي وتقرب منه، وقد منحه هذا الأخير نحو خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه[224].

استمر تدفق المهاجرين الجزائريين نحو المغرب وتونس وبلاد الشام خلال العهد العثماني بل تضاعف عددهم في مدينة القاهرة التي أصبحوا يؤلفون فيها أكبر تجمع للمهاجرين الجزائريين خاصة طلاب العلم والمدرسين منهم.

---

[222] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص 439.

[223] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 1، ص 439.

[224] - شهاب الدين أحمد الناصري الدرعي السلاوي، المصدر نفسه، الجزء 7 ، ص 31.

من العلماء الجزائريين المترددين على المشرق الشيخ أحمد بن عمار وتلميذه محمد أبو راس الناصر، حيث رحل ابن عمار إليه مرتين على الأقل حج في سنة 1166هـ-1752م ، وجاور بالحرم المكي إثنتي عشرة سنة وكان موجودا هناك في سنة 1172هـ-1758م ورجع إلى الجزائر بعد سنة 1178هـ، وتولى بها فتوى المذهب المالكي سنة 1180هـ، ثم سافر إلى تونس للإستيطان سنة 1195هـ-1780م، وكان في سنة 1205هـ-1790م بالمشرق[225]، والغالب أنه لم يعد إلى الجزائر وظل مجاورا حتى وفاته، حيث ذكر تلميذه محمد أبو راس أنه توفي بالحرمين[226]. وكغيره من العلماء استفاد وأفاد ابن عمار بالمشرق وأخذ على علمائه وأخذو عنه ومن تلامذته الذين أجازهم هناك الشيخ عبد الوهاب المكي الهندي، وهي من بين إجازاته التي اصطبغت بالصبغة الأدبية[227]، والشيخ محمد خليل المرادي[228] صاحب " سلك الدرر" الذي حرر له إجازة في أواخر ذي الحجة من عام 1205هـ-1790م.

كما ظلت الصلات الثقافية وثيقة بين مدينتي فاس وتلمسان خلال العهد العثماني لقرب المسافة بين المدينتين ولذلك قلما نجد من علماء تلمسان من لم يدرس بفاس لعدم إرضاء مدينتهم لطموحهم العلمي كالشيخ العلامة سعيد المقري الذي مكث مدة بالمغرب الأقصى ودرس على علمائه قبل أن يعود إلى تلمسان ويتصدى للتدريس بها، ولهذا كان المغاربة على معرفة تامة بمنزلته وبفضله،وقد استغل اثنان من علماء فاس فرصة وجود ابن أخيه أحمد[229]

---

[225] - ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، الجزء 2، ص 229.

[226] - محمد أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، ص 49.

[227] -ابوالقاسم سعد الله ، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 185.

[228] - هو محمد خليل بن علي المرادي، البخاري الأصل الدمشقي المولد والوفاة، كان مفتي الحنفية بدمشق، ونقيب الأشراف بها، من مؤلفاته سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، وعرف ممن ولي الفتوى بالشام، تحفة الدهرو نفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر، توفي سنة 1206هـ، 1791م، أنظر الجبريتي، عجائب الآثار، الجزء الثاني، ص 99، ص 100، صلاح الدين المنجد، المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني، ص 73.

[229] - هو الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد أبو العباس المقري، ولد بتلمسان وقرأ بها على عمه سيدي سعيد المقري، رحل إلى فاس 1009هـ ، وذاع صيته، له عدة تآليف منها نفح =الطيب، فتح المتعال في النعال، وأزهار الكمامة في العمامة، توفي بالشام مسموما سنة 1041هـ، أنظر الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ، الجزء الأول، ص 66.

المقري بالمغرب أثناء رحلته الأولى سنة 1009هـ-1600م ليكلفوه باستجازته لهما وهما الشيخ أحمد بن القاضي[230] والشيخ أحمد بن أبي القاسم[231] التادلي.

زار الشيخ أحمد المقري المغرب الأقصى لأول مرة في سنة 1009هـ-1600م فدخل فاس في الرابع صفر وفي نفس اليوم الذي حل بها توجه إلى جامع القرويين حيث حضر حلقة الشيخ علي بن عمران السلاسي[232] في مختصر خليل وناقشه في بعض المسائل الفقهية، ومنذ ذلك الحين انتشرت سمعة المقري العلمية بين علماء فاس فأقام بها نحو سبعة أشهر يفيد ويستفيد ويروي ويستجيز، ثم رحل إلى مراكش ونزل ببلاط السلطان أحمد المنصور وأقام بها هي الأخرى حوالي سبعة أشهر ثم عاد إلى فاس ليغادرها بعد أن قضى بها مدة راجعا إلى تلمسان، في ذي القعدة 1010هـ-سبتمبر 1602م وبهذا يكون غيابه عن تلمسان واحد وعشرين شهرا وقد خلد المقري هذه الرحلة بكتاب ألفه في علماء المغرب سماه " روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضريتين مراكش وفاس" عد فيه حوالي أربعة وثلاثين عالما من علماء المغرب الذين اتصل بهم ولقيهم بفاس ومراكش.

من بين العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى تونس نجد عيسى الثعالبي الذي نزل بمدينة تونس وأخذ عن كبار علمائها كالشيخ تاج العارفين البكري (ت1072هـ) كما كان للشيخ حمودة بن محمد بن حمودة المقايسي الجزائري (ت1245هـ) رحلة علمية إلى المشرق[233] ولكن لا نعرف مدتها ولا تاريخها إلا ما وجد بخط يده في أواخر بعض الكتب

---

[230] - هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية، الشهير بابن القاضي، (960هـ - 1025هـ) تخرج على يد كبار علماء المغرب مثل: الشيخ السراج والقصار والمنجور، رحل إلى المشرق وجاور بالحرمين الشريفين مدة، أخذ عن علماء مصر، كالشيخ سالم السنهوري، وبدر الدين القرافي، له عدة مؤلفات منها المنتقى المقصور على محاسن الخليفة المنصور، وجدوة الإقتباس، درة الحجال، أنظر عبد الكريم الكتاني، زهر الأس، الجزء الثاني، ص 100، ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الجزء الأول، ط 2، مطابع إديال، الدار البيضاء، ص 326 ، ص 328.

[231] - أحمد أبو القاسم التادلي الصومعي (ت 1013هـ) صاحب زاوية الصومعة بتادلا، له مشاركة في العلوم والمعرفة بالتصوف، أخذ عن الشيخ يعزى الخروبي، والشيخ محمد بن عبد الرحمن الشريف، أنظر محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، الجزء الثالث، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 1137 ، ص 1138.

[232] - أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلاسي، مفتي فاس وقاضيها (960هـ - 1018هـ).

[233] - لم يستقر المقايسي هناك، مفضلا العودة إلى مدينة الجزائر، وأصر على ذلك حتى عندما عرض عليه أهل تونس الإقامة بينهم، لمباشرة التدريس هناك ويقومون بكل ما يحتاجه، ولكنه لم يتولى أية وظيفة بها، فقد وجد بخط يده متحدثا عن عودته قائلا: " فوجدت فيها علماء وأصحاب جاه، وكان في ذلك الوقت لا يسود إلا من يتردد على أصحاب المملكة، فكنت أتعيش من الصنعة (مقايس) وأكلت كتبي أي باعها"، أنظر الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، الجزء الثاني، ص 149،ص 150.

يثبت قراءتها بالقاهرة على بعض مشائخ الأزهر منها ما وجد على آخر نسخة بخط يد من " الحكم لابن عطاء الله الإسكندري[234]، يؤكد فيها أنه إبتدأ قراءته بالجامع الأزهر على الشيخ الأمير في الفاتح من شهر رمضان وختمه عليه في اليوم الثاني والعشرين منه وذلك سنة 1203هـ ،منها أنه قرأ "شرح القطب الرازي على الشمسية" في شهر شعبان من سنة 1204هـ-1789م [235]كما أثبت في آخر ورقة من " تقرير القوانين" الكتاب المعروف في آداب البحث والمناظرة بأنه طالعه مع الشيخ حسن بن محمد العطار الشافعي الأزهري،[236] بمنزل هذا الأخير الكائن بالمشهد الحسني تجاه مسجد الحسين وكان الفراغ منه في أواخر ربيع الثاني من سنة [237]1212هـ و بذلك يتأكد لنا أنه مكث بالقاهرة ثلاث سنوات.

إن الهجرة التي انتهجها الجزائريون خلال العهد العثماني مهما تباين نمطها (مؤقتة أو دائمة) خلفت آثارا على الساحة العلمية منها:

- تدني مستوى التعليم بعد هجرة المعلمين إلى المشرق أو المغرب العربيين حيث تركت هذه الفئة فراغا كبيرا وسط المراكز الثقافية وحتى المعلمين الذين حاولوا شغل هذا الفراغ كان تحصيلهم الثقافي محدودا جدا لذلك زاد من ضعف مستوى التعليم والتحصيل الفكري للطلبة.
- مغادرة الكثير من الطلبة لحلقات الدرس واتجاههم إلى المهن الحرة بعد رحيل شيوخهم وهناك بعض الطلبة ممن حاولوا اقتفاء أثر أساتذتهم للأخذ عنهم.
- انتشار البدع والخرافات في الأوساط الاجتماعية بسبب غياب العلماء والفقهاء.
- سيطرة أشباه المتصوفة على الحياة الفكرية والدينية في غياب الوازع الديني (الفقهاء) والرادع الاجتماعي (العلماء) فوجدت هذه الفئة ضالتها وأسقطت بعض أفراد المجتمع في بؤرة الجهل والفساد.

---

[234] - الحكم العطائية لأحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري (ت 709هـ - 1309هـ) معجم المؤلفين، الجزء الثاني، ص 274.

[235] - محمد الحفناوي، المرجع السابق، الجزء 2، ص 149 – ص 150.

[236] - حسن بن محمد المصري، المكنى بأبي السادات المشهور بالعطار (1180هـ - 1250هـ) قرأ بالأزهر على شيوخ كثيرون منهم: محمد عرفة، الدسوقي الكبير، وعلى محمد قبان، من مؤلفاته حاشية على الأزهرية، وحاشية على شرح قواعد الإعراب، أنظر عبد الحميد بك، أعيان المشارقة والمغاربة، ص 87، ص 88.

[237] - محمد الحفناوي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 150.

- ظهور فئة جديدة من أشباه العلماء ومحاولتهم السيطرة على الساحة الفكرية للجزائر هذا عن الآثار السلبية:
- اتساع خبرات وتجارب العلماء بعد دراستهم على يد علماء في العالم الإسلامي.
- الصلات الثقافية الوطيدة بين المغرب والمشرق العربيين من خلال الإيجازات.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر باللغة العربية:

-ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني (تحقيق: الشيخ البوعبدلي) قسنطينة: منشورات وزارة التعليم الأهلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، 1973.

- عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر (1107- 1117هـ/ 1695- 1705م)، تحقيق وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، 2006.

- محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية (تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981،

- ابن عبدون، ثلاث رسائل ئاندلسية في آداب الحسبة و المحتسب، (تحقيق : ليفي بروفنسال) القاهرة، 1955.

- جمس ليندر كاثكارت، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق، اسماعيل العربي، د. م ج.الجزائر ،1982.

-وليام شالر ، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (ترجمة : إسماعيل العربي)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

-حمدان خوجة، خوجة، حمدان بن عثمان، المرآة، (تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري)، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م.

-عبد القادر، المشرفي، بهجة الناظر في أجنار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، (تحقيق: محمد عبد الكريم)، بيروت: مكتبة الحياة، بدون تاريخ.

- محمد بن يوسف، الزياتي، دليل الحيران، وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران (تحقيق و تقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1979.

-أحمد الطالب بن طوير الجنة، الحاجي الورداني(ت . 1265ه / 1849م) ، تاريخ ابن طوير الجنة ، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، منشورات معهد الدراسات الافريقية، جامعة محمد الخامس، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط، 1995.

-جمس ليندر كاثكارت، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق، اسماعيل العربي، د. م ج.الجزائر ،1982.

- أحمد بن هطال، التلمساني، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري الصحراوي (تحقيق: محمد بن عبد الكريم)، القاهرة: عالم الكتب 1969.

الحاج أحمد المبارك تاريخ حظيرة قسنطينة ، تعليق نور الدين عبد القادر.

-وولف جون (ب)، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، (ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م،
-محمد بن عبد الرحمن ، الزهرة النائرة بما جرى للجزائر حين غارت عليها الجند الكفرة ، مخطوط منشور في مجلة تاريخ و حضارة المغرب، كلية الآداب، الجزائر ، 1978.
- أحمد بن أبي الضياف، اتحاف اهل الزمان في أخبار ملوك تونس و عهد الأمان، ج1، الجزائر: الدار التونسية للنشر، ش.و.ن.ت، ط.1982
- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق ، محمد بن عبد الكريم، ش و ن ت، ط 2. 1981

ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، جمهعا و أعتنى بها، فارس كعوان، ط1،الجزائر: بيت الحكمة،2009.

المصادر باللغة الجنبية:

général d'Alger », Traduction (Monnereau et A.Berbrugger), in **R.A** (N°14), 1871.

Haedo, « Histoire des rois d'Alger », Trad et annotée par (H.D- de Grammont), A.Jourdan, Alger, 1881.

-Henri. Klein, Feuillets d'El Djazaïr, collection des cahiers du comité du ville d'Alger, Alger, Fantana, L.chair, 1937.

-Shaw, Voyage dans la régence d'Alger ou description géographique, physique, philologique, etc., et de cet état, Trad. de l'Anglais avec des nombreuses augmentations par J.Mac Carthy, Paris, Malin, 1830.
-.Garrot,(H), Histoire générale de l'Algérie, Alger, 1910

E.Cat, Petite histoire de l'Algérie, Tunisie-Maroc, Adolphe Jourdan,
- Alger, 1889, T1
-Albertini (E), Marcais(G), l'Afrique du Nord Française dans l'histoire, éd Archat, Paris, 1937.

M.Herve, lesdebuts de la régence d'Alger de 1518 à1566, paris2005-
(F) CHARES ROUX : France Afrique du nord avant 1830 , les précurseurs la conquete , pp 496-498.
. Devoulx, le registre des prises maritime, Alger, A.Jourdan, 1872.

p.de Lacroix » descption abgée de La ville d alger 1695 » prèsentè par M . Emerit, in Annales de l institut d,ètudes orientales, T.XI, Alger 1956.

- C. BONTEMSM Manuel des institutions algèriennes de la domination turque à l ,indèpendance , èd.cuja , paris 1976.
-rozet (m) voyage dans Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupè par larmeè française en afrique du nord. Ti.

-Père, DAN, Histoires de Barbarie et de ses corsaires des royaumes des villes d'Alger, de Tunis, de Salé et de Tripoli, 2ème édition, Paris, P.Rocdet, 1637.
- les M.Herve, lesdebuts de **la régence d'Alger de 1518 à1566, paris2005.**

(F) CHARES ROUX : France Afrique du nord avant 1830 , les précurseurs la conquete ,

المراجع باللغة العربية:

مولاي، بلحميسي، الجزائر من خلال الرحالة المغاربة في العهد العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982.

- وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق : عبد الفادر زبدية، ش،و،ن،ت، الجزائر 1980

-وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق : عبد الفادر زبدية، ش،و،ن،ت، الجزائر 1980.

-أرزقي شويتام، دراسات ووثائق في تاريخ الجزتئر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830م، دار الكتاب العربي, ط1، 2010.

- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، 926-1246ه/ 1519-1830م، دار الكتاب العربي، ط 1، 2009.

-محمد أنيس، الدولة العثمانية و الشرق العربي، القاهرة: مكتبة لأنجلو المصرية، بدون تاريخ.

مولاي، بلحميسي، الجزائر من خلال الرحالة المغاربة في العهد العثماني، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982.

- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766- 1791. سيرته ، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العمة في عهده، م.و.ك، الجزائر 1986.

- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني ، العملة ،العملة و الأسعار،ج1 دار القصبة للنشر، 2009.

- ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800- 1830، الجزائر، ش.و.ن.و الطبعة الأولى 1979.

- ناصر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في المكتبة والوقف و الجباية، ط 1، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 2001.

-ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ط 1، بيروت: دار المغرب الإسلامي، 2000.

ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني ، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر تونس وليبيا 1816-1871، ط2، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، تونس

جمال قنان، نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830-1914) الجزائر ديوان المطبوعات الجزائرية، 1993.
. إبن عبد الكريم محمد: المخطوطات الجزائرية في مكتبات إسطانبول، بيروت، مكتبة دار الحياة، 172.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث واراء في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر: دار الرائد، 2009.
- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 2، الجزائر، د.م.ج، 2007

- محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاربخ المغرب العربي الحديث، الجزائر: ش. و .ن.ت، 1685.
- صلاح العقاد، المغرب في بداية العصور الحديثة، مصر: دار المعارف، 1972،

عبد الرحمان الجيلالي محمد بن شنب: حياته وتراثه في تاريخ الجزائر العام، بيروت، . 1965

المراجع باللغة الأجنبية:

[1] Edward Said,Orientalism , K egan Paul , london ; 1980.

[1] Goyen Georges,Un grand Missionnaire le cardinal La vigerie (paris 1925) pp 74/75

Gsell (Stéphane) Histoire ancienne de l’Afrique du Nord , VLL de 1913 à 1928 Hachette , paris.

[1] Gautier , Etienne –Félix , L'Islamisation de l'Afrique du Nord , les Siècles obscurs du Maghreb (Bibliothèque historique) paris , payot 1927 In 8, 432p Seconde édition refondue le passé de l'Afrique du Nord les Siécles obscurs , paris, pyort , 1936 .

[1] Cour , Augustc Catalogue des manuscrits arabes conservés dans les principales bibliothéques algériennes : Medersa de Tlemcen Alger : A Jourdan , 1907, p 7

-Berbrugger Adrien Algérie histrique , pittoresque et monumentale : recueil de vues monuments, c érémonies, armes et portraits –paris chez J . Delahaye éditeur , 1843, vol 3, 4° partie , pp 78/79

[1] Ageron , Charles – Roberts , les Algériens musulmans et France (1871-1919) 2 t.

-Féraud ; Laurent –Charles : les interprétes de l'armés d'Afrique (archives du corps) Alger A Jourdan , 1876 .

[1]- Baron de Slane, Rapport adressé à M le minstre de l'instruction publique suivi du cataloque des manuscrits arabes les plus importants de la bibliothéque d'Alger et la bibliothé que de cid Hammouda à Constantine , paris imprimerie d e paul Dupont , 1845.

-Basset , Réné l aManuscrits arabes des bibliothéques des Zaouias de Ain Mahdi et Temacin, de Ouargla et de Adjadja , Alger imprimerie de l'association ouvriére p .Fontana et Cie , 1885.

-Fagnan Edmond Cataloque général des manuscrits de la2éd 1995 pp II III Bibliothéque national d'Allgérie.

- Ben Cheneb Mohammed Catalogues des manuscrits des manuscrits arabes conservées dans les principales bibliothéques algériennes Grande mosquée d'ALGER Alger A Jourdan ; 1909.

- Cour Auguste Catalogue des manuscrits arabes des principales bibliothéques algériennes Medersa de Tlmcen ; Alger A Jour dan ; 1907.

-FAGNAN, Catalogue des manuscrits de la Bibliothèque Nationale d'Alger, Alger, 1893.

-ESQUER, Gabriel, Les sources de l'histoire de l'Algérie, p. 393, in, Histoire et historiens de l'Algérie, Paris, 1931.

Haedo, « Topographie et histoire général d'Alger », Traduction (Monnereau et A.Berbrugger), in **R.A** (N°14), 1871, P.394

- Deny,(J), « Les registres de solde des janissaires », in R.A, (N°61), 1920, P.36.

- Federico, Cresti« Alger à la période Turque : observations et hypothèses sur sa population et sa structure sociale », in **R.O.M.M** N°44, 1987.

-.Devoulx, « coopération de la régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque », in, R.A, (N°1),1856-1857, PP.133-134.

Devoulx.(A), « La marine de la régence d'Alger », in, R.A (N°13) 1869.

-Venture de Paradis, « Alger au XVIII^{e} siècle », in, R.A(N°40), 1896.

-Federman et Aucapitaine, « Notice sur l'histoire de l'administration du BeyliK du Titteri», in **R.A**, (N°11), 1867.

p.de Lacroix » descption abgée de La ville d alger 1695 » prèsentè par M . Emerit, in Annales de l institut d,ètudes orientales, T.XI, Alger 1956.

rozet (m) voyage dans Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupè par larmeè française en afrique du nord. Ti

- Touati. H « Les corporations de mètiers à alger à l.époque ottomane » in revue d.histoire Maghrèbine. N.47 – 48. Dècember 1987.p .177.

- Nacereddine Saidouni l, algèroise rural à la fin de l ,èpoque Ottomane (1791- 1830)ed, dar AlGHAREB Al – ISLAMI, BAYROUTH ,2001.

المقالات:

اللغة العربية

-أميلي حسن ، النظام العسكري في الولايات المغاربية العثمانية من خلال المؤرخين الفرنسيين ، نيكولا دي نيكولاي و الراهب بيير دان، العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية و المتوسطية، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، المطبعة الأمنية ، الرباط، ط1، 2005.ص ص 177- 194.

- حنيفي هلايلي، النشاط التجاري في مدينة الجزائر العثمانية على ضوء مخطوط قانون الأسواق، المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس، العدد 117، جانفي 2005.ص ص 11- 18.

-أبو القاسم سعد الله: " رسالة من الشيخ العنتري القسنطيني إلى المترجم فيرو" مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة الجزائر، العدد الأول 1986.

- عياد محمود: التراث الوطني المكتوب وإعادة إحيائه" مجلة الثقافة العدد 2، الجزائر ،1974 ،ص 74.

-إبراهيم، فخار، المكتبات الخاصة بالصحراء الجزائرية" دفاتر التاريخ للمغربية، العدد 1 جامعة هران، ديسمبر، 1987،ص 26-31.

- محفوظ قداش، الجزائر في العهد التركي، **مجلة الصالة**، العدد 52، الجزائر 1988.

خليل، الساحلي: "وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565م"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 7-8، تونس، جويلية 1977م، ص 41-60.

- عبد الجليل، التميمي، "الخليفة الدينية للصراع الإسباني- العثماني، على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربي، العدد6، تونس، جويلية 1976م، ص 116-120.

- عبد الجليل، التميمي، "رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية المغربية في القرن 16م" المجلة التاريخية المغربية، العدد 29-30، تونس، جويلية 1983م، ص 71-107.

- حنيفي هلايلي، النشاط التجاري في مدينة الجزائر العثمانية على ضوء مخطوط قانون الأسواق، المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس، العدد 117، جانفي 2005.ص ص 11- 18.

-حنيفي هلايلي، **ملاحظات حول دفاتر الحكومة في الجزائر خلال العهد العثماني دفتر التشريفات نموذجا**، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، تونس : العدد 50، أكتوبر 2014.

- عبد الرحيم بن حادة ، مساهمة الأرشيف العثماني في كتابة تاريخ العلاقات المغربية – العثمانية ق 16- 19م، المغرب في العهد العثماني، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة مطبعة النجاح الجديدة بالبيضاء ، الرباط، عدد 41، ط1، 2005 .ص ص 7- 11.

- محمد العربي الزبيري، مقاومة الجزائر للتكتل الأوربي قبل الإحتلال ، مجلة الأصالة، العدد 12، الجزائر 1973.

اللغة الاجنبية:

-(C) ARNAUD « attaque des batteries Algeriennes par l EXMOUTH 1816 « R. A. N n° 19, 1875 , p 195.

. Federico, Cresti« Alger à la période Turque : observations et hypothèses sur sa population et sa structure sociale », in **R.O.M.M** N°44, 1987, , PP.132-133.

Haedo, « Topographie et histoire général d'Alger », Traduction (Monnereau et A.Berbrugger), in **R.A** (N°14), 1871, P.394

- Deny,(J), « Les registres de solde des janissaires », in R.A, (N°61), 1920, P.36.

- Federico, Cresti« Alger à la période Turque : observations et hypothèses sur sa population et sa structure sociale », in **R.O.M.M** N°44, 1987.

-.Devoulx, « coopération de la régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque », in, R.A, (N°1),1856-1857, PP.133-134.

Devoulx.(A), « La marine de la régence d'Alger », in, R.A (N°13) 1869.

-Venture de Paradis, « Alger au XVIII^{e} siècle », in, R.A(N°40), 1896.

-Federman et Aucapitaine, « Notice sur l'histoire de l'administration du BeyliK du Titteri», in **R.A**, (N°11), 1867.

p.de Lacroix » descption abgée de La ville d alger 1695 » prèsentè par M . Emerit, in Annales de l institut d,ètudes orientales, T.XI, Alger 1956.

rozet (m) voyage dans Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupè par larmeè française en afrique du nord. Ti

- Touati. H « Les corporations de mètiers à alger à l.époque ottomane » in revue d.histoire Maghrèbine. N.47 – 48. Dècember 1987.p .177.

Albertini , Egéne , Stéphane Gsell Bibiographie des travaux , in RA n pp 20-53

- Nacereddine Saidouni l, algèroise rural à la fin de l ,èpoque Ottomane (1791- 1830)ed, dar AlGHAREB Al – ISLAMI, BAYROUTH ,2001.

- Touati. H « Les corporations de mètiers à alger à l.époque ottomane » in revue d.histoire Maghrèbine. N.47 – 48. Dècember 1987.p .177.

- Venture de Paradis, « Alger au XVIII^{e} siècle in, R.A(N°41), 1897.p.278.

-Federman et Aucapitaine, « Notice sur l'histoire de l'administration du BeyliK du Titteri», in **R.A**, (N°11), 1867.

- Devoulx.(A), « La marine de la régence d'Alger », in, R.A (N°13) 1869.

- Deny,(J), « Les registres de solde des janissaires », in R.A, (N°61), 1920, P.36.

Lespes (R) « guelgues documents sur la corporation des Mozabites d'alger dans les premieres temps de la conguète in, R.A(N°66), 1925.pp.197-218.

- - E. WATBLED : " Etablissement de la domination turque en algèrie), in **R.A** (N°11), 1870, P.356

- A.Berbrugger» Des Frontieres de l Algerie » in **R.A** (N°4), 1859, P.413.

E.vayssettes « histoire de derniers Beys de constabtine », in **R.A**, (N°03), 1858 .P. 117.

- Öcal, Oguz, « mariage entre les Turcs et les femmes d'Afrique du nord et problème de « Kuloglu » a l'époque Ottomane », in, ◌́AH.R.O.S, (N°25), Zaghouan, Août 2002,.

-Laloe, Francis , A propos de l'incendie de la bibliothéque d'Alexandrie par les Arabes : les manuscrits arabes de Constantine in R .A n° 66, 1925, p101

-Robin Colonel Notes et Documents concernant l'insurrection de la grande kabylie en 1856 -1857 in R .A n° 45 , 1901 pp 360/361

-Féraud , CH Epoque de l'établissement des Trucs à Constantine in R .A n° 10 , 1866 p 188

- Fangan Edmond , La collection des manuscrit de si Hammoude in RA n° 36 , 1892 p 165

- Said ben Charbonneau , Jacques Auguste Cataloque des manuscrits arabes Bachtarzitaleb de Constantine in journal asiatique , 5° série n°4 , 1954, pp 433/444 .

-Basset réné Euvre scientifique de la France en Algérie et nord Afrique in Journalasiatique T 20 ; 1920.

- Bel, Alfred Réne Basset in R .A n° 65 ; 1924 pp 12-19

Doutté Edmond Loeuvre scientifique de l'école des lettres d'Alger in R .A n° 49, 1905 p 440

-Basset Réné les Manuscrits arabes de la Zaouyah déelhame in Giornale della Societa Asiatica Italiana n°10 , 1896 -97 pp 43-97 ,

- Mass2 ; Henri les etudes arabes en Algérie (1830-1930) in R.A n° 74 ; 1933, pp 208/258 pp 465/466

-[1] Cherbonneau, Jacques Auguste Cataloque des manuscrits arabes de si Said ben Bachtarzi Taleb de Constantine in Journal Asiatique 5° série n ° 4 pp 433-444

[1]. Shacht J Bibliothéques et manscrits abadites in R.A n ° 100 , 1956 p 376

- Bernard Augustin Emile Masquerray in R.A n° 38 ; 1894 pp 350-373

-DEVOULX, Albert, Alger, étude archéologique et topographique sur cette ville aux époques romaines (Icosium), arabe (Djezaïr Beni-Maz'renna) et turque (El-Djezaïr) p. 422, in, Revue Africaine, 1875.

-DENY, Jean, Documents turcs inédits relatifs à l'Algérie des années 1754 à 1829, in, Journal Asiatique, mai- juin 1914, pp. 708- 709, séance de 8 mai 1914.

-DELPHIN, G, Au sujet des mêmes documents, p. 710, in, Journal Asiatique, mai- juin 1914, séance du 8 mai 1914.
- DENY, Jean, Les rigistres de solde des Janissaires conservés à la Bibliothèque Nationale d'alger, pp. 19- 46 et 212- 260, in, Revue Africaine, 1e et 2e trim., 1920.
- COLOMBE, Marcel, contribution à l'étude du recrutement de l'Odjak dans les dernières années de l'histoire de la Régence, pp. 166-181, in, Revue Africaine, 3° et 4° trim., 1943.
-Devoulx, « coopération de la régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque », in, R.A, (N°1),1856-1857, PP.133-134.
-E.vayssettes « histoire de derniers Beys de constabtine », in **R.A**, (N°03), 1858 .P. 117.
- A.Berbrugger» Des Frontieres de l Algerie » in **R.A** (N°4), 1859, P.413.

-H.D. de, Grammont, « un épisode diplomatique à Alger au XVIIe siècle », in, R.A (N°26), 1882, P.130-138.

-(A) TEMINI « Documents turcs inédits sur la bombardement d'alger 1816 » R.O.M.M N° 5, 1968 , p 122.
Riche (R.).Notes et documents de la corporation des Bijoutiers à constanTine avant 1830) R.A (1961) n 466 et 467,P, 181.

الأطروحات:

-خليفة، حماش، العلاقات بين إيالة الجزائر و الباب العالي من سنة 1798 إلى 1830م، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الإسكندرية، 1988م.
- محمد دادة، اليهود في الجزائر في العهد العثماني (منذ مطلع القرن 18حتى 1830) مذكرة ماحستر جامعة دمشق .1985م.
- نجوى طوبال، طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر (1700 – 1830) من خلال سجلات المحاكم الشرعية، مذكرة ماجستير. جامعة الجزائر 2004-2005 م.
-عبد القادر أوقاسي: مخطوطات المؤلفين الجزائريين من خلال فهرس فانيون، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2000 .
-كمال، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور (1850-1951) رسالة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة، 2007-2008 ، 236
-محمد، بوشنافي، الجيش الإنكشاري في الجزائر خلال العهد العثماني (1700 - 1830)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران 2000-2001.
- بليل رحمونة، القناصل و القنصليات الأجنبية بالجزائر العثمانية من 1564 إلى 1830، اطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة وهران، 2010-2011.

فهرس الدروس

الاوضاع الثقافية في بداية العهد العثماني.....1

المؤسسات الثقافية في الجزائر.....9

المساجد.....18....

الزوايا.....27....

المدارس.....35...

المكتبات.....41..

التعليم (مراحله).....50

العلماء.....58....

العلوم و اصنافها.....67

العلوم النقلية.....73

الحواضر الثقافية (تلمسان، بجاية، مدينة الجزائر، قسنطينة، مازونة، معسكر...).....87

التصوف والطرق

الصوفية.....

.....96

التواصل الثقافي بين الجزائر ومحيطها العربي

الإسلامي.....100

البيبلوغرافيا

.....

109

فهرس

الدروس.....134